الأندلس
بين ضِفتين

على خُطى الأندلسيين
من الفتح إلى الشتات

تقديم: د. رشيد العفاقي

مريم المير

اسـم الكتـــاب: الأندلس بين ضفتين

اسـم الكـاتـــب: مريم المير

الطبـعة الأولـــى:

رقـــم الإيـــداع: ٠٠٠٠/٠٠٠٠٠

الترقيـم الدولـي: ٠ـ٠ـ٨٥٤٣٨ـ ٩٧٧ـ٩٧٨

تصميم الغـــلاف: أحمد فرج

الإخـراج الفـنـي: ضياء فريد

التحـريـر الأدبـي:

المراجعة اللغـوية:

01271185731

kotopiapu@gmail.com

kotopiapu

٣٦٨ شارع عبد السلام عارف - فيكتوريا - الإسكندرية

جميع الحقوق محفوظة ©

يمنع منعاً باتاً الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة أو النشر الإليكتروني أو التصوير الضوئي للمحتوى أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر والمؤلف، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية طبقاً لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

إهداء

على شط الكلمات تتبعثر الأحرف..

تعجز أن تصوغ إهداء يليق بمن ساندني وأنار دربي..

باختصار

إلى أبي

شكر

- لفريق بصمة؛ لأعضاء الفريق واحدا واحدا لكل من نهى عودة، وأيمن حويرة، وكريم عبد المجيد، وإبراهيم أحمد عيسى وأحمد ضيوف، لاحتضانهم لي كأسرة وتشجيعهم رغم بعد المسافات.
- للأستاذ سيدي محمد القاضي، الذي فتح قلبه لي واستضافني في جولة تاريخية بين مآثر شفشاون، مما حفزني للمضي في هذا الطريق.
- للدكتور رشيد العفاقي، الذي شرفني بتقديمه لكتابي هذا ولم يبخل علي بنصح أو توجيه حتى استوى هذا العمل على سوقه.

مقدمة

بين «**الذاتي**» و«**الموضوعي**» فضّلت مريم المير أن تنطلق في الكتابة عن الأندلس من الأوّل، وهذا ليس عيبا في الكتابة التاريخية عند المغاربة، فهم ورثة الحضارة الأندلسية، ولهم علاقة قرابة بالأندلس لا يمكن بأي حال من الأحوال التخلص من حميميتها، والتجرد من روابطها المنسابة إلى الروح والقلب..

ولذلك لا غرابة أن تطالعنا مريم بهذا الاعتراف في ديباجة كتابها: «**الأندلس بين ضفتين**».. وهو أن عملها يصدر «**عن نزيف قلم مثقلٍ بالذكرى**»...

فإذا أضفنا إلى نجوى الذاكرة أصولها العائلية الأندلسية أدركنا شدة ارتباط الكاتبة بالتاريخ الأندلسي.

وثمة عوامل ذاتية أخرى ساهمت في نسج خيوط نص هذا الكتاب، منها أن الكاتبة مريم المير هي جغرافيا دائمة الإقامة على تخوم الأندلس، فهي ابنة طنجة مدينة طارق بن زياد فاتح الأندلس، المدينة التي تطل على مضيق جبل طارق الذي يفصل عدوتي المغرب والأندلس....

لا شك أنّ لهذا التقارب الجغرافي سهم في تحفيز الكاتبة على إعادة رسم تاريخ للأندلس من خلال عدد من النصوص التي اطلعت عليها.

وإذا وصلنا إلى النصوص فإنه يحق لنا أن ننتقل إلى «**الموضوعي**» في كتاب مريم المير، فعلى الرغم من أن العوامل الذاتية كامنة في اختيارات الكاتبة إلا أنّها لم تجنح إلى التخييل وإنما عمدت إلى الأصول لتمنح لكتابها طابع المصداقية يطمئن إليه القراء والباحثون في التاريخ الأندلسي.

نجد في الكتاب فصولا عن الحضارة الأندلسية حاولت فيها مريم أن تكون شمولية في عرضها، وهذا ما يعبر عنه العنوان الفرعي للكتاب: «**على خطى الأندلسيين.. من الفتح إلى الشتات**»، وهو مدى زمني عريض وطويل لا تسعه إلا الأسفار، غير أن مريم سلكت طريق «**ما قل ودل**» فجاء كتابها جامعا لأشتات نصوص تتسم بالإيجاز والإفادة معا..

إن العرض الشمولي لمريم المير لم يترك جانبا من حضارة الأندلس وتاريخها إلا وخصه بالذكر، ففيه يقف القارئ على سرد للوقائع التاريخية من زمن الفتح عام ٩٢هـ/ ٧١١م إلى تاريخ ذلك السقوط المدوي لغرناطة عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م، وهو تاريخ مفعم بالحيوية والنشاط، ومتخم بالانتصارات والفتوح لاسيما في شطره الأوّل، إلّا أنه كأيّ مسار تاريخي بَشَرِيّ كان لا بد له من الانحدار حين لم تعد شروط الوقوف متوفرة لدى الأندلسيين، فتدهورت أمور المسلمين بالجزيرة وتفككت بينهم الأواصر التي جمعتهم في القرون

الأولى التي تلت الفتح، فكان من شأن ذلك أن استغل القشتاليون والأراغونيون تلك الأزمات لصالحهم وانقضوا على حصون المسلمين ومدنهم الواحدة تلو الأخرى.

يقدم كتاب مريم المير تشكيلة متنوعة من المواضيع عن نبوغ الأندلسيين في العلوم والمعارف والفنون، وهي علوم برع فيها الأندلسيون تأليفا وتجربة في ميادين الفلاحة والبيطرة والطب، أما علوم القراءات القرآنية فقد كان للأندلسيين فيها القدح المعلى، وقد أجرت صاحبة الكتاب ذكرا لبعض أعلام هذا الفن الذين لا تزال تآليفهم مرجع القراء المسلمين إلى اليوم.

ولم يفت الأستاذة مريم أن تفرد فقرات في كتابها لعرض بعض نباهة وشفوف الأندلسيين في الأدب شعرا ونثرا.

على أن الأندلسيين كانوا قد مروا بفترات عصيبة، ومحن شديدة خلال تاريخهم الطويل، من تهجير، وتنصير قسري، وسلب للمال والمتاع، وهو موضوع حاضر في كتاب مريم المير التي أتت بنماذج من صور التعذيب والتحقير الذي تعرض له الأندلسيون بعد سقوط غرناطة وقبله، في عرض مفصل إلى حد ما، بقدر ما يبعث على الحزن، فإنه يثير الإعجاب بأولئك الأندلسيين، وقد عُرفوا في تواريخ المتغلبين بالموريسكيين، الذين ظلوا متمسكين بدينهم كالقابض على الجمر إلى أن غلب التعصب الصليبي بصدور قرار طردهم من أرضهم نهائيًا سنة ١٦٠٩م.

ثم تتبعت الكاتبة آثار أولئك المطرودين بالعدوة المغربية التي احتضنت المهاجرين الأندلسيين، فقد قدر لكثير منهم أن يكملوا مشارعهم الإبداعية والعلمية في أرض المغرب المعطاء.

كتاب مريم المير لا شك في أنه يحملنا إلى ذُرى من الجمال والروعة وهو يسبح بنا مع أعلام الحضارة الأندلسية الذين شيدوا ذلك الصرح الزاهي الذي ظلت تفتخر به العروبة والإسلام إلى اليوم، كما نجد هذا الاعتراف حتى في كتابات المنصفين من عقلاء الأوربيين والأمريكيين.

د. رشيد الخيّاقي

طنجة يوم فاتح

جمادى الأولى ١٤٤٠هـ

الموافق لـ ١٧ يناير ٢٠١٩م

تقديم

أجدني أدمنت الكتابة عن «**الفردوس المفقود**».. تُرى لماذا؟

هل لأنني ولدت بمدينة تطل عليه صباح مساء؟

أم لأنني اكتشفت جذوري الأندلسية؟

أم لأني أحمل هويةً حضاريةً كانت تمسك بريادة العالم فأصبحت نسيا منسيا؟

إن الكتابة عن الأندلس ما هي إلا نزيف قلم مثقلٍ بالذكرى.. بين من غرس فسائل النور والتسامح، وبين من حملوا مناجِل الكراهية وحصدوا كل أمل في التعايش والتراحم تحت مظلة الوطن الواحد والقيم الكونية المشتركة.

هذا الكتاب الذي بين أيديكم يروم إبراز معالم الحضارة الإسلامية متمثلة في نقطة من «**العالم الغربي**» كان يُراد لها أن تكون جسرا للحوار وتلاقح الحضارات، ولكنها لأسبابٍ ذاتية وأخرى موضوعية اندثرت لتصبح أطلالا ومعالم يرتادها السياح والبكّاؤون والمتطفلون.

هذا العمل الذي بين أيديكم ليس بكتاب ترف تاريخي، وما كان له أن يكون كذلك، لكنه مكابدةٌ بين مصادر ومصائر ضفتين، ما أقدمه الآن بين أيدي القراء هو ثمرة جُهد متواضع يُقدم مقاربة مختلفة لكي لا تضيع ذكرى أجدادي الأندلسيين تاريخيا.. ولأجل أن نستعيد زمن الوَصْل والوِصَال.. فنغرس شتلة أمل لعالم جديد.

قبل الإبحار

كلما سابقت خُطاي على الشاطئ لاح لي في الأفق القريب البعيد شبه الجزيرة عائمةً، أتُرَاي أدوس مَوْطِئَ قدَمي طارقٍ على الرمل وأنا أرى ما رآه؟ هل دارَ بخلده يوما أن الإسلام الذي بَذَرَهُ بتلك الديار سيُقْتَلَعُ من جذوره بالحديد والنار بعد أن أيْنَعَ وأثمر وأَظَّلَ أهل البلاد لثمانية قرون؟

هُنا، على هذه الضفة لا شيء تغير في المشهد أمامي غير الزمن.. فالأمكنة هي هي.. جبل طارقٍ لايزال شامخا في مكانه يُقابله جبل موسى، والنوارس تنسج خيوط وصالٍ لا مرئيةً بين الجبلين.. وعلى الساحل الآخر تجلس طريفة ترقب بين الشروق والغروب انصرام المواقيت حاملة نعوش الذكريات.

أنصتُ للأمواج تروي قصص الذين عبروا من وإلى هُنَا... إني لأجد ريحهم لولا أن تُفَنِّدون، أسمع صهيل خيلهم.. صوت المجاديف وهي ترتطم على أمواج المراثي.. فيبتلعني الأفق الزُّمُرُّدي ليقذفني في أتُونِ الماضي.. صرتُ يا سادتي أبحث عن مشافي الروح وشلالات أُطْفِئ بها عطشي، بَيْدَ أني وَرِدْتُ ماءَ الزقاق المُشَبَّع بأُجَاجِ العَبَراتِ

فلم أَزْدَدْ سوى ظمأ، صرتُ كمَجْذُوبَة بين الفيافي والقفار والأمصار.. أتحسّس أريج أندلس كُلَّمَا تَنَفَّسَ صُبْحي..

بين قرى أنجرة[١] بدأت الحكاية.. عيون أهلها تشي ألوانها بهويةٍ أخرى منصهرةٍ فينا ومعنا، تتماهى مع زُرقة السماء، وعادات تلتحف من جبال البشرات مناديلا، ومن طليطلة قراطيسَ يرسمون عليها حكاياهم، ومن محاريب مساجد قرطبة وإشبيلية تأوهات روح وتراتيل تتموج بين قبابها متسلقةً مآذنها لتعانق زغاريد الحصادين.. بالحمّة، والزاوية، والملالح، والقلعة، والحومة، والخندق، والرّملة، والقصيبة، والشطيبة[٢]..

(١) من أكبر المناطق القبلية في شمال المغرب التي استوطنها الموريسكيون.

(٢) مداشر بقبيلة أنجرة لها أسماء أندلسية كانت تحملها قرى الأندلس العربية، وتحتفظ بها إلى اليوم بعض القرى باسبانيا.

الخط الزمني للأندلس

عصر الفتح:

وهو العصر الذي دخلت فيه جيوش طارق بن زياد وموسى بن نصير إلى الأندلس، وقد استمر أربع سنوات (٩٢هـ-٩٥هـ / ٧١١م-٧١٤م)

عصر الولاة: (٩٥هـ-١٣٧هـ / ٧١٤م-٧٥٥ م)

يعتبر بعض المؤرخين مدة الفتح داخلة في هذا العهد، الذي ينتهي بمجيء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة (١٣٧هـ/٧٥٥م). وقد حكم الأندلس في هذا العصر - الذي استمر حوالي ٤٢ سنة- عشرون واليا تقريبا، كانوا تابعين للخلافة في دمشق مباشرةً أو بواسطة ولاية الشمال الإفريقي (إفريقية والمغرب).

عصر الإمارة: (١٣٨هـ-٣١٦هـ/ ٧٥٥م-٩٢٩م)

يبدأ منذ مجيء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس حتى إعلان الخلافة من قِبل عبد الرحمن الناصر (الثالث) سنة (٣١٦هـ/٩٢٩م)،

وقد أسس عبد الرحمن الداخل إمارةً مستقلةً عن الخلافة العباسية استمرت ١٧٨ سنة.

عصر الخلافة: (٣١٦هـ-٤٠٠هـ / ٩٢٩&م-١٠٠٩م)

يبدأ منذ إعلان الخلافة حتى وفاة الحكم المستنصر سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)، أو حتى الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) فكان عمر الخلافة حوالي قرن من الزمن.

عصر ملوك الطوائف: (٤٠٠هـ- ٤٨٤ هـ / ١٠٠٩م- ١٠٩١م)

وهو عصر دول أو ملوك الطوائف، الذي سبقته أعوام من الفوضى. وقد استمر هذا العصر حوالي ثلاثة أرباع قرن، حيث بلغت إماراتها اثنتين وعشرين إمارة، وأصبحت مهددةً بالفناء على يد النصارى بعد أن سقطت طليطلة بيدهم سنة ٤٧٨هـ[١]. واستمر التدهور حتى دخول سلطان المرابطين الأندلس.

عصر المرابطين: (٥٢٠هـ-٦٢٠هـ / ١٠٩١م- ١١٢٦م)

في هذه الفترة خضعت الأندلس لدولة المرابطين بعد معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ بقيادة يوسف بن تاشفين والتي أعادت للمسلمين اعتبارهم وهيبتهم، وضخّت في شرايين المقاومة الأندلسية دماء جديدة منحت الأندلس طاقة من الصمود استمرت لبضعة قرون أخرى.

---

(١) منير القادري بودشيش، الفكر الأصولي في الأندلسفي القرن الثامن الهجري وإسهام ابن جزيّ فيه، ص.٣١. الرابطة المحمدية للعلماء. ط. ٢٠١١

عصر الموحدين: (٥٢٠هـ-٦٢٠هـ / ١١٢٦م – ١٢٢٣م)

وتنتهي دولة المرابطين لتحل محلها وترث وظيفتها في البناء والنماء دولة الموحدين بعد انتصارهم على النصارى في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ، ثم يستمر وجودهم لما يقرب من قرنين. لكن في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ بدأ نجم الدولة في الأفول، فواجهت انتفاضات داخلية ضدها، فضلا عن هجمات صليبية خارجية مما عجل بانهيارها.

عصر مملكة غرناطة: (٦٢٠هـ-٨٩٧هـ / ١٢٢٣م- ١٤٩٢م)

ظهر على مسرح الأحداث محمد بن يوسف بن هود الجذامي، سليل بني هود ـ ملوك سرقسطة أيام عصر الطوائف ـ غير أنه ما لبث أن هُزِم في عدة معارك أمام إسبانيا النصرانية وتوفي سنة ٦٣٥هـ، وكان قد برز في هذه الفترة محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر ـ الذي ينتسب إلى سعد سيد الخزرج (رضي الله عنه)ـ كمنافس خطير لابن هود، لكن وفاة هذا الأخير فسح المجال لابن الأحمر الذي تمت له البيعة في غرناطة سنة ٦٣٥هـ، فكان هو المؤسس لدولة بني نصرـ التي عرفت أيضا بدولة بني الأحمر.[١]

عاشت هذه الدولة ما يزيد على قرنين ونصف القرن، حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس الميلادي) ويمثل سقوطها نهاية للحكم العربي الإسلامي بالأندلس، وذهاب سلطان المسلمين السياسي عنها.

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (٢/٩٢ـ١٠١)

ورغم هذا، بقيت الملايين العديدة من المسلمين، عشرات السنوات تقاوم الذوبان والانسلاخ عن الهوية، وقد تحملوا الكثير من الاضطهاد وعمليات الإفناء التي أتت عليهم قتلا وتشريدا وإبادةً، وكادت أن تأتي على كل ما خلفه المسلمون هناك ـ بشتى طوائفهم ـ من تراث إنساني رفيع شمل مختلف ميادين الحياة.[1]

(١) بتصرف من:منير القادري بودشيش.الفكر الأصولي في الأندلسفي القرن الثامن الهجري وإسهام ابن جزيّ فيه،ص ٣١. وعبد الرحمن حجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة.ص٣٠، ٣١.

«إن هؤلاء المستكشفين الذين يفترض أنهم مسيحيون كانوا أكثر بربرية من هؤلاء الذين ادعوا أنهم أعلى مرتبة منهم..إن الأميركيين الأصليين كانوا في وضع أكثر أمناً لو أنهم كانوا يعيشون في بلد مسلم، حيث إن الإسلام يتعامل بإنسانية حتى مع الأسرى، أكثر مما أظهره هؤلاء الرجال تجاه أناس أحرار».

بنجامين فرانكلين

شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح

إذا زرت يوما الجنوب الإسباني والشمال المغربي ستلاحظ حجم التشابه في ما يخص المناظر الطبيعية وأنواع النباتات.. والذاهب لبلاد ما لأول مرة لا يسعه وصفها إلا استنادا لما رأى وعايش قبلها في منطقة أخرى، لهذا كان وصف الأندلس في كتاب أرسله قائد الجيش العربي إلى الخليفة الأموي بأنها: «**شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها**»[1].

وضعيتها السياسية قبل الفتح:

كانت شبه الجزيرة الإيبيرية(إسبانيا والبرتغال حاليا) **قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي، والتأخُّر الاقتصادي وعدم الاستقرار؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد، والسلطة الفاسدة،** لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرةً على الدفاع، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية؛ بل كان بإمكانها أن

(١) المقري في نفح الطيب ج١ ص ١٢٦ نقلا عن أبي عبيد البكري

تصدَّ جيشًا مهاجمًا وتُحاربه وتقف في وجهه؛ فقد أقام القوط في إسبانيا دولة اعْتُبِرَتْ من أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الميلادي، وبقيت بعد ذلك تتمتَّع بقوة عسكرية مُدَرَّبة وقوية، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات[١].

دوافع الفتح:

لم تكن فكرة فتح الأندلس وليدة أيام موسى بن نصير، بل إنها فكرة قديمة جدا، فمنذ أن استعصت القسطنطينية على الفتح زمن عثمان بن عفان ـ وكانت الحملات الإسلامية قد وصلت إليها ـ قال قولته المشهورة: «**إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر**».[٢]

فكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يعني أن المسلمين سيفتحون الأندلس أولا (غرب أوروبا) ثم يتوجهون منها صوب القسطنطينية (شرق أوروبا) فيفتحونها من قبل الغرب لا من قبل الشرق، من جهة البحر الأسود في ذلك الوقت.

من مكة انطلق الشعاع يمتد في جميع اتجاهات العالم.. وكان الهدف الأسمى من فتح الأندلس هو نشر الإسلام في ربوعها وإعلاء كلمة الله فيها، فالفاتحون حملوا إلى الناس الإسلام بالفتح، ولم يحملوا الناس بالفتح على الإسلام. أمّا الهدف الثاني فكان تحصين وحماية الفتح الإسلامي في شمالي إفريقية عامة وفي ولايتي طنجة

(١) عبد الرحمن حجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ص.٣٠ـ٣١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٤ /١٦٣؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك ٥٩٨/٤

وسبتة خاصة، وكان الروم قد اتخذوا من جزيرة صقلية قاعدةً أمامية متقدمة لهم، ينطلقون منها للتعرض للسفن المارة بالساحل الإفريقي المقابل لها.

وتتهيأ الظروف والأسباب للقادم الجديد بدعوة من قيادات سياسية للبلد المستهدف طلبا للنجدة والخلاص والرغبة في الانتقام.

روايات الفتح

عُرف عن أشراف القوط أنهم كانوا يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى طليطلة، حيث يوجد القصر الملكي، فيقضون هناك وقتا للتعلم والتأدب بآداب الملوك حتى يبلغوا سن الزواج.

وعلى هذا العُرف، أرسل يليان صاحب طنجة وسبتة ابنته إلى هناك لتتربى تربية الأميرات، بيد أنه وقع ما لم يكن في الحسبان، فقد أعجب بها لذريق ولما تمنعت عن الزواج به اغتصبها. وبعد أن اشتكت إلى أبيها قرر هذا الأخير أن ينتقم لشرف ابنته، وكانت خطته تقضي بأن يستعين بالمسلمين ويُدخلهم الأندلس للقضاء على حكم لذريق وإعادة أولاد غيطشة إلى الحكم.

وبالفعل اتصل بطارق بن زياد في طنجة وعرض عليه غزو الأندلس، وبعدما استشار هذا الأخير موسى بن نصير في القيروان تمت الموافقة على اقتراح يليان لتتجه الأنظار صوب الأندلس.

وهكذا، عبرت أوّل سريةٍ استطلاعيةٍ الزقاق في رمضان[1] سنة ٩١هـ/ ٧١٠م تحت قيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زرعة، فنزل

(١) الزّقاق: اسم يطلق على المضيق البحري الذي يفصل الأندلس وشمال إفريقيا

في جزيرة بالوما Isla de las Plomas)) في الجانب الإسباني، والتي ستعرف فيما بعد باسمه «**جزيرة طريفة**» ((Tarifa).

بعدها بسنة(٩٢هـ/٧١١م)، حط المسلمون الرحال بالأندلس تحت إمرة طارق بن زياد بعد أن عبرت جيوشهم المضيق الذي سمي على اسم قائد الفتح (جبل طارق)، وانتصروا على مملكة القوط الغربيين وملكهم لذريق في معركة وادي لكة، ليلتحق بهم موسى بن نصير إثر وصوله إلى طليطلة، ثم ينطلق جيش الفتح في ربوع البلاد فاتحين.

أصبح بحر الزقاق فيما بعد يخلد أسماء هؤلاء القادة الحاملين للواء الحرية: جبل موسى (موسى ابن نصير) المطل على قرية بليونش المحاذية لسبتة المحتلة، وأمامه في الضفة الأندلسية جبل طارق (طارق بن زياد)، وبالقرب منه مدينة طريفة (نسبة لطريف بن مالك).

جيش الفتح

كانت الجيوش الإسلامية تضم في صفوفها الكثير من الفقهاء والعلماء والدعاة، وكان ضمنهم عدد من التابعين أحصاهم ابن بشكوال(٤٩٤ـ٥٧٨ هـ/١١٠١ـ١١٩٣م) فبلغ ثمانية وعشرين، وقد ذكرهم الشيخ أحمد بن المقري التلمساني في كتابه «**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**»[١]. فمنهم حنش الصنعاني، وأبو عبد الله علي بن رباح اللخمي، أبو عبد الرحمان عبد الله بن زيد المعافريالحبلي

(١) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – ج ٣ ص:٥ ـ تحقيق د.إحسان عباس – دار الصادر بيروت

من مصر، وحبان بن أبي جبلة مولى من قريش، وحيوة بن رجاء التميمي، وعياض بن عقبة الفهري، وغيرهم.[1]

وقد كان هؤلاء هم النواة الصلبة والقاعدة الأساسية في التنظير والتأطير والتسييير، خرجوا من قوقعة الجزيرة العربية لا يلوون على شيء سوى نشر الإسلام، يدفعهم حديث رسول الله ﷺ: عن محمد بن يحيى بن حبان، عن أنس، قال: حدثتني أم حرام بنت ملحان: أن رسول الله ﷺ قال في بيتها يوما، حين استيقظ، وهو يضحك. فقلت: يا رسول الله: ما أضحكك؟ **قال: عُرض علي ناس من أمتي يركبون ظهر هذا البحر، كالملوك على الأسرة.** قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأولين). وحديثها له طرق في «**الصحيحين**».

(١) رشيد العفاقي: مقالات»تراجم التابعين الذين دخلوا الأندلس»، من موقع مركز عقبة بن نافع للدراسات والأبحاث حول الصحابة والتابعين www.oqba.ma

﴿لا إكراه في الدين﴾

لم يكن الهدف من دخول المسلمين لبلاد شبه الجزيرة الإيبيرية استعمار الأراضي ونهب الخيرات واستعباد السكان الأصليين كما فعلت الإمبراطوريات السابقة والإمبريالية فيما بعد، بل كان المحرك لانتشارهم في كل أصقاع المعمور هو تحرير الناس من سلطة الكهنوت والطغاة وجعلهم يعبدون الله الواحد، وهكذا لم تكن الرسالة التي يحملونها تحمل فكرًا يتعصب لإثنية أو عنصر أو عرق معين، فالذين عبروا إلى الأندلس كانوا يحملون رسالة حضاريةً، وكانوا خليطًا من العرب والبربر، وهذه الفئة الأخيرة التي رافقت طارق بن زياد كانت تمثل كتلةً بشريةً مهمةً على مستوى النوع والكم.

وقد أورد د.محمد حقي الجدول التالي[1] يبين فيه أقوال المؤرخين:

عدد المهاجرين	عدد المؤرخين القائلين به	أسماء المؤرخين
أقل من ألفين	٢٠	ابن قتبة – الطرطوشي
سبعة آلاف	٣٠	الحميري- القلقشندي-ابن الشباط
٤٨٩١١ أو ٦٨٩١١	٤٠	الحميري-القلقشندي- ابن خلكان- المقري
٢١ ألف	٨٠	ابن الثير-ابن عذاري- ابن شباط- الطبري- ابن كثير- أخبار مجموعة- المقري- النويري
٢١ ألف ومتطوعة	٢٠	ابن الكردبوس- وصاحب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها»
٠١ آلاف و٠٠٣ رجل	٢٠	ابن خلدون – الناصري
٣١ ألف و٠٠٧ رجل	١٠	صاحب «ذكر سبب فتح الأندلس»

فالممارسة الفعلية للفاتحين على أرض الواقع للمبادئ والشعارات التي كانوا يحملونها ويبشرونبها، وهم يتحققون بها ويتخلقون بمقاصدها، لدليل على صدق منطلقاتهم؛ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ

(١) محمد حقي. البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة اثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية.ص ٣٦

ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (سورة الإسراء الآية ٧٠). لذلك، كان من باب تكريم الإنسان المحافظة على كيانه واحترام معتقداته، وهذا ما جعل الانسياب سلسًا داخل المجتمع الجديد، من خلال: معاهدات ومواثيق تحفظ لهم حقوقهم ضمن سياق حضاري ومنظومة قيم كونية تجمع الوافد الجديد والمقيم تحت ظلال دولة الإنسان، يحملون شعار «**لا إكراه في الدين**». وذلك سيرا على منهاج النبوة؛ يوم دخل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ووضع «**دستورا**» يضمن الحقوق وينظم العلاقات بين مختلف الفرقاء من أجل الصالح العام تحت سقف وطنٍ واحدٍ يسع الجميع. إذ ورد عن النبي ﷺ: «**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً.**» رواه البخاري.

نموذج من المعاهدات والمواثيق:

إليكم نموذجا من «**كتاب الصلح**» الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش (Théodemir wisigoth) وهو الذي سميت باسمه تدمير إذ كان ملكها، ونسخة ذلك الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش، أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم، ألا يقدم له ولا لأحدٍ من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يُكْرَهوا على دينهم، ولا تُحرق كنائسهم، ولا يُنزع عن ملكه ما تعهد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه وأنه صالح على سبع مدائن: أوريوالة، وبلنتلة، ولقنت، وموله، وبقسره، وأية ولورقة، وأنه

لا يؤدي لنا إبقاء ولا يؤوي لنا عدواً، ولا يخيف لنا أمنًا، ولا يكتم خبرَ عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلاءٍ وأربعة أقساط خل وقسطَي عسل، وقسطَي زيت، وعلى العبد نصف ذلك. شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي وحبيب بن أبي عبيدة بن ميسرة الفهري، وأبو قائم الهذلي، وكُتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة».

الاختلاط والمصاهرات:

من خلال العلاقات الاجتماعية والمصاهرات جعلت الشعب المستقبِل يقف على خصائص الفاتحين الجدد. فكانت شهادة الخليط والمحيط تكتشف فيهم جمالية الإنسان الأخروي وهو يحلق في معارج الروح لبناء الإنسان والعمران.

لقد أدت سياسة التسامح هذه، وحرية الاختلاط بين المسلمين وغيرهم من أهل البلاد، إلى شيءٍ من التجانس والتماثل، ولا سيما بين المسلمين والنصارى، فكثر التصاهر بينهم. وقد ابتدأ القائد عبد العزيز بن موسى بن نصير هذه السياسة، وشجع على التزاوج بين النصارى والمسلمين، وتزوج هو نفسه من أيلة (ايخيلونا) (Egilona) أو أم عاصم أرملة الملك لذريق(Rodrigo) آخر ملوك القوط في إسبانيا. وقد تبع عبد العزيز في هذا الأمر بقية القادة المسلمين، من أمثال زياد بن النابغة التميمي، وعيسى بن مزاحم، الذي تزوج من سارة القوطية ابنة ألمند (Olmundo) ابن غيشطة، وكذلك بقية الجند الإسلامي، ولا سيما أنهم دخلوا إلى الأندلس دون نساء، فاضطروا إلى الزواج من أهل البلاد. وقد أدت هذه المصاهرات بطبيعة الحال إلى زيادة انتشار الإسلام في الأندلس في زمن قصير.

بذل الندى وكف الأذى
والصبر على طول المدى

كانت سياسة المسلمين في الفتح قائمة على التسامح تجاه أهل العقائد الأخرى واحترام طقوسهم وعاداتهم، الشيء الذي سهل عملية الفتح وجعل عددا من السكان يدخلون الإسلام طواعية لانبهارهم بأخلاق هذا الدين، وفي هذا الصدد يقول سير توماس أرنولد (Sir Thomas W.Arnold): «**وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد**»، ويضيف: «**على أنه في الأحوال التي كان يعتدي فيها المسيحيون على الدين الإسلامي، كانوا يحاكمون أمام قضاتهم وفقاً للقوانين المعمول بها في بلادهم، ولم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية. ولا غرو، فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية الكاثوليكية، وكذا ترنيم المزامير وإلقاء المواعظ والاحتفال بالأعياد المسيحية على النحو الذي كانوا يحتفلون به قبل الفتح**»

.

وكما ذكر سابقا فقد أبان هؤلاء الفاتحون عن تسامح وانفتاح تجاه أصحاب العقائد الأخرى؛ «**فتكفي نظرة سريعة إلى مجلدات «إسبانيا المقدسة»** (España Sagrada) ليتبين بما لا يدع مجالا للشك أن الهيكلة التنظيمية لرجال الدين المسيحيين، وشعائر العبادة المسيحية، وحركة الرهبنة المسيحية، استمرت عمليًّا دون أي تدخل، لما يربو على مئتي عام بعد الفتح الإسلامي. بعد ذلك كانت الحوليات ضئيلةً بالمقارنة، ولكن حتى في السنوات اللاحقة، كانت الأحداث المعزولة تشير إلى استمرار تمتع المسيحيين بالحرية. وعليه، وفي إشارة لبعض الأمثلة ليس إلا، فقد وردت أسماء ستة أساقفة من قرطبة تولوا مهامهم بين ٨٥٠م و٩٨٨م، كما يذكر المؤرخ الإسباني مورغادو(Alonso de Morgado) قائمة بأسماء ١٣ من أساقفة إشبيلية، تعاقبوا على مناصبهم حتى منتصف القرن الثاني عشر».

العدل

أشرنا في البداية إلى أن الأندلس كانت تعاني من فساد واضطراب اجتماعي قبل الفتح، فكان القوي يأكل الضعيف في ظلم صارخإذكانوا يقسمون الناس إلى طبقات؛ طبقة النبلاء والملوك، فطبقة رجال الدين والجيش، فطبقة كبار المزارعين، فصغارهم، وتأتي طبقة المزارعين في أسفل الدرجات. لهذاكان أعظم ما رآه القوط من المسلمين هو إزالة الفوارق الطبقية في الأندلس، فقد «**أصبح ذاك المزارع خلال ثلاث سنوات – وقد أزيل عنه ذاك النظام الجائر الذي قهر الناس من قرون- يمتلك الحق في أن يملك أرضا أو أي شيء آخر، وله أن يقاضي حاكم البلد إن شعر بظلم أو حيف، ومن حقه أن يتاجر فيبيع ويشتري ما يحب ويشاء**».

كان فتح العرب للأندلس في جملته نعمةً ورخاء على الأندلسيين المحكومين؛ لأنه أبطل ما كان يملكه النبلاء ورجال الكنسية من الضياع الواسعة، وحولها ملكيات صغيرة، ثم رفع عبء الضرائب عن الطبقة الوسطى، واقتصر منها على الجزية على غير المسلمين، والخراج على المسلمين وسواهم، ثم حث على تحرير العبيد والرفق بهم، وإصلاح أحوالهم فأصبحوا زراعا مستقلين».

«إذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد وما بعده، حيث كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدا رأينا أن مراكز الثقافة في أوربا كانت أبراجا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرؤون، وإن أكثر الرجال معرفة كانوا من الرهبان المساكين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين بخشوع، ودامت همجية أوربا حتى القرن الحادي عشر حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمةً وحدهم»

غوستاف لوبون

Gustave LEBON

نهضة الأندلس

التعليم أولا والتعليم دوما

إن الاختيارات الاستراتيجية للأمة الشاهدة تنبثق عن تصورها للكون والإنسان والحياة ووظفيتها على هذه البسيطة، مع تحديد علاقاتها بالذات عموديا وبالآخر أفقيا، ولا يتم ذلك إلا بتزاوج علوم التسخير مع علوم التيسير ليتم اللقاح في تناغم تام مع نظام الكون. ولا بناء لحضارةٍ بغير رؤيةٍ بعيدة المدى؛ تقرأ الواقع، تضع تصورات للقدرات وبرامج مرحلية للتنزيل ومناهج تقويمية وتقيمية ودراسات لمكونات المحيط الجغرافي والقوى المؤثرة... وكل هذا ينبني على العلم وبالعلم. ولاتوجد أمة قد جعلت للعلم والتعلم مقامًا وقداسةً مثل أمة الإسلام في درجة الواجب الشرعي، بل جعلت منه إحدى الوسائل التي يُتَقَرَّب بها إلى الله تعالى؛ ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، و﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾. بل كانت أول سورة نزلت هي سورة العلق؛ التي يحث مطلعها على العلم والتعلم «**اقرأ**».

الانتقال من الواقع المشهود إلى الموقع المنشود

ولا بد من البيان أن البناء الإسلامي عموما والأندلسي للمجتمع يقوم على العلم الشرعي والعمل به أولا، ثم يكون التخصص والظهور والتقدم في الميادين المتنوعة، بطريقة تعليمية منهجية، تظهر من يظهره علمه، ويتقدم من تقدمه تقواه ومواقفه وصلاحه؛ إذ إن **العلم للعمل** شعار ثابت دائم، بذلك يوضع الأساس العام الكريم الرفيع؛ بناءٌ لا يتجزأ، بلا تفاريق وأجزاء، يؤخذ كتلةً واحدةً تامةً كاملةً متكاملةً، بمعنى البناء الإنساني حزمة واحدة متلاحمة، إذا صلح صلح الإنسان بأكمله: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» رواه البخاري».

بدايات النهضة

في خضم التقلبات السياسية وعدم الاستقرار لم يكن لأهل البلاد ولا لحاكمها أن يلتفتوا للثقافة والعلم، لهذا كان الإنتاج الثقافي محدودا حتى استقرت أحوال الأندلس تحت حكم صقر قريش عبد الرحمن الداخل (١١٣هـ/٧٣١م ـ ١٧٢هـ/٧٨٨م)، فبدأ الاهتمام بالعلوم والثقافة والتربية يأخذ مجراه بصورة متنامية انطلاقا من «**اقرأ**» وإيذانا ببناء أمة مبدعة في شتى المجالات، «**فكانت هناك مكتبة في كل مسجد واحتوت هذه المكتبات على كل أنواع الكتب**» (دينية وثقافية).

وفي عهد محمد ابن عبد الرحمن الأوسط (٢٠٧هـ/٨٢٣م ـ ٢٧٣هـ/٨٨٦ م) بدأ المؤرخون يُشيرون إلى المكتبة الأموية كواحدة من أشهر مكتبات قرطبة، واشتهر الأمير عبد الرحمن الناصر بحب الكتب، وعمله على نشر المعرفة في ربوع البلاد، فابتنى في قرطبة وحدها سبعا وعشرين مدرسة وأدخل إليها الفقراء من الطلاب مجانا، وصارت قرطبة في عهده منارةً تجتذب إليها الأدباء والعلماء والفنانين.. حتى أن قيصر قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة، حرص أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس.

الحركة العلمية في عهد الحكم

كان الحَكَم رجل علم وحضارة، وهو ثاني الخلفاء الأمويين في الأندلس، فقد حكمها ـ بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر– خلال المدة (٣٦٦هـ/ ٩٦١م –٩٧٦م)، متخذا لقب «**المستنصر بالله**». وقد شهدت الأندلس في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢م ـ ٩٦١م) وابنه الحكم نهضة شاملة في جميع ميادين الحياة، فقد وفرا للبلاد حياة مستقرة وهادئة إلى حد كبير، فتهيأت بذلك الأجواء المناسبة للابتكار، والنهوض بالعلم، وتشجيع العلماء.

وكان الحكم المستنصر عالما مشاركا في علوم عصره، فقد كان متقنا للعلوم الإسلامية، وسمع الشيوخ منه الحديث، وأجاز لهم مروياته وأجازوه مروياتهم، وكانت أبوابه مفتحة لطلبة العلم لا يرد منهم أحدا،

فقد كان «**محبا للعلوم، مكرما لأهله، جماعا للكتب بأنواعها، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله**».

نهضت الحركة العلمية في فترة الخلافة الأندلسية نهضة شاملة، وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس واستقلالها. فقد شجع الناصر وابنه الحكم المستنصر (٣٠٢هـ/٩١٥م - ٣٦٦هـ/٩٧٦م) العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس وأغدقا عليهم العطاء، وكان للحكم عمال وظيفتهم الوحيدة هي جمع الكتب من مشارق الأرض ومغاربها من بلاد المسلمين ومن غير بلاد المسلمين، فإذا جاؤوا بكتاب في الفلك أو الطب أوالهندسة أو غيرها من أي بلد غير إسلامي ترجم على الفور وضم إلى المكتبة الأموية، وقد وسع الحكم بن عبد الرحمن الناصر في المكتبة كثيرًا، وجعل لها أروقةً عظيمةً حتى تستوعب كثرة الحضور من المسلمين.

موازاة مع الكم الهائل من الكتب التي صارت تصل من كل مكان، انتعشت مهنة النسخ وتجليد الكتب وكل ما له علاقة بها، حتى قال ابن خلدون: «**وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحدٍ من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء**»

، ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفي عن استيعاب العدد العظيم من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحًا عظيمًا خاصا بالمكتبة، افتن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أبهائه. و»ذكر ابن حزم أن تليدا الفتى – وكان على خزانة العلوم

بقصر بني أمية بالأندلس- أخبره أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسةٍ خمسون ورقةً، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط».

مقام العلماء

إن بناء الإنسان مُقَدَّمٌ على بناء العمران، لذلك كان إعداد المحاضن والعناية بالبنائين (المعلمون والمربون والعلماء) من أولويات المشروع النهضوي، فكانت العناية والتشيع والحوافز التي منحت لهاته الفئة في المجتمع كفيلة لتحقيق نهضة شاملة على كافة الأصعدة.

وقد بلغ من تعظيم الحَكم للعلماء وتوقيره لهم أنه لم يكن يرفض لهم طلبا، حتى صارت لهم صولةٌ في المجتمع الأندلسي في ذلك الحين، وكان يتفقد أحوالهم، ويزور مجالسهم.

وشجع الحكم العلماء على التأليف بكل ما استطاعه من وسائل، كالإعفاء من الغزو في مقابل تأليف كتابٍ، ومثاله ما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث المعروف بالصفار (ت.٣٥٢هـ).

ومن وسائل التشجيع الجوائز الكبرى، وإسناد الوظائف المهمة إلى العلماء الذين يعملون على التأليف، ومثاله: تقديم أبي عمر أحمد بن عبد المالك الإشبيلي المعروف بابن المكوي (ت.٤٠١هـ)، وأبي بكر محمد بن عبيد الله القرشي عبيد الله القرشي المعيطي(ت.٣٦٧هـ) للشورى، تكريما لهما على تأليفهما كتاب «**الاستيعاب**» في الفقه المالكي. كما كان يعمل على تهيئ ظروف التأليف للعلماء، كالإمداد بالمصادر، وإعداد المكان، ومتابعة العمل.

تعميم التعليم

لبناء حضارة قوية ممتدة لا بد من تعميم المعرفة ونشر العلم في مختلف شرائح وطبقات المجتمع، لهذا لم تقتصر رعاية الحكم للعلم على الاتجاه الأكاديمي العميق فقط، بل سعى إلى بعثه في وسط أولاد الفقراء والضعفاء، «**فأنشأ بذلك مركزا للتعليم، وجعل لمعلميه أوقافًا من دخْل حوانيت السراجين، وهي ما مُدح به**».

لقد عاشت الأندلس في ظل الإسلام – الذي حث على العلم ونوه بالقلم– عصرا ذهبيًّا كادت الأمية فيه أن تتلاشى، بل حكى بعضهم انتفاءَ الأمية في الأندلس في فترة من الزمن، حيث **استوعبت المدارس الابتدائية لكثرتها جميع أفراد الأمة حتى أصبح الجميع يجيدون القراءة ويحسنون الكتابة.**

أمة اقرأ: الإقراء سر الارتقاء

لم يكن هذا الشغف بجمع الكتب في عصر الحكم، قاصرا على الأمير، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب. ولا نستثني شغف النساء المثقفات كذلك، ومن أشهرهن عائشة بنت أحمد بن قادم، التي عدت من أبرع نساء عصرها، علما وأدبا وشعرا، واعتبرت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة.

وكانت سوق الكتب في قرطبة، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة؛ وقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم، خاصة وأن الكثير منهم أجادوا اللغة العربية، ليتذوقوا ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها، ويعد الطبيب اليهودي حسداي

من أشهر هؤلاء، فقد كان طبيب الحكم الخاص، وفي ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية وألفوا بها مختلف الكتب. وقد حظي الأسقف العالم ريثموندو الإلبيري(Recemundo)، المسمى باسمه العربي، ربيع بن زيد، بعنايةٍ ورعايةٍ من لدن الحكم، لتبحره في علم الفلك والعلوم الفلسفية. ويعد هذا الحبر القرطبي عالما مبرزا، متمكنا من الآداب العربية واللاتينية، وقد شغل مكانةً هامةً في القصر.

ومما ساعد على انتشار الكتب وازدهار الحياة العلمية، تطور صناعة الوراقة في الأندلس حيث تولى الوراقون نسخ ما يظهر من مؤلفات، كما اشتهرت الأندلس بمصانع الورق، وتميزت بهذا الإنتاج بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة، وشاطبة، وقد حاز مصنع شاطبة شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد، قد نقلها عرب الأندلس من بغداد التي أنشئت عام ٧٩٤م كما انتقلت منها بواسطة عرب صقلية والأندلس إلى أوربا.

وتمر السنوات لتتربع الأندلس على عرش الحضارة في شتى الميادين العلمية، ففي زمن المنصور بن أبي عامر (٣٢٧هـ/٩٣٨م ـ ٣٩٢هـ/١٠٠٢م) برز أبوالقاسم الزهراوي (ت. ٤٠٠هـ/١٠١٣ م) في علم الجراحة، وقد عد مؤلفه «**التصريف لمن عجز عن التأليف**» موسوعةً لم يؤَلَّف في الطب أجمع منها، حتى أن البعض وصفها بأنها ملحمةٌ كاملةٌ، وليس من الغريب أن تصبح هذه الموسوعة المصدر الأساسي لجراحات الغرب حتى القرن السابع عشر، وتظل المرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوروبا، والحقيقة التي ينبغي أن لا تغفل أن الجراحين الذين عُرفوا في إيطاليا في عصر النهضة وما تلاه

من قرون قد اعتمدوا اعتمادا كبيرا على كتاب «**التصريف لمن عجز عن التأليف**» للزهراوي؛ فيقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالّر Albrecht von Haller (١٧٠٨ـ١٧٧٧): «**كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استسقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر**».

ورغم أن هناك من يزعم أن الحروب الصليبية هي وحدها السبب في إدخال العلوم إلى أوربا، إلا أنها في الحقيقة قد تسربت من معابر أخرى غيرها، فقد دخلت العلوم أوربا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا أيضا، وذلك أن مكتباً للمترجمين في طليطلة بدأ منذ سنة ١١٣٠م بنقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريموند Raimendo (١١٢٦ – ١١٥٢ م)، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة فقد تدفقت العلوم العربية على أوربا من خلال الأندلس بعد أن فتح العرب الطريق عبر جبال البرت إلى فرنسا وإيطاليا، حيث عبر العلم والفلسفة العربيان من خلال رأس الجسر الثقافي الذي أقيم في شبه جزيرة إيبيريا إلى أوروبا.

«**وقد عمت التأثيرات الأدبية العربية وبصماتها ـ عن طريق الأندلس ـ الأدب الإسباني بفضل النصوص الشعرية والنثرية الخاصة بالحروب ومغازي الفتوحات، وتعدى تأثيرها عدة مراحل حتى شمل الروائي والفن القصصي الإسباني والإيطالي، وشعر «التوبادور»** الفرنسي، وشعر الغزل بصفة عامة، وانتقل إلى الموسيقى الإسبانية وإلى إيقاعاتها. ومن تم تسرب هذا التأثير الموسيقي إلى عدد من الدول الأوروبية عن طريق الفلامنكو الإسباني وعن طريق المؤلفات

الموسيقية العربية إلى غاية القرن السابع عشر. واكتشفت الآلات الموسيقية العربية، كالرباب والعود والناي والقيارة والطبل.

كما تأثرت الفلسفة الغربية في عصر النهضة بالفلسفة العربية التي مرت إلى أوروبا عبر الأندلس، وبفلاسفتها أيضا كابن رشد، وابن باجة وابن طفيل.

ففي الوقت الذي أصدرت «**هيئة الدومنيكان**» في أوروبا قرارها الذي يحرم على أعضائها دراسة الفلسفة وتعاطي الفنون والعلوم، كان ابن النديم ينشر في بغداد كتاب «**الفهرست**»، الذي جمع فيه أسماء خمسة آلاف مجلد مما ألفه العرب المسلمون في الفلسفة والطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفقه والحديث والتفسير والقراءات والتاريخ والآداب، والقانون والقضاء، والدين، وفي الوقت الذي حرم فيه المسيحيون الأطباء من لمس الجسد الإنساني، لأنه من صنع الخالق، واعتبروا الطب علما مشبوهًا فيه وشركا بالله، كان «**أبوالقاسم الزهراوي**» ينشر كتابه الذي ظل إنجيل الجراحة والجراحين لعدة قرون. وكانت آخر طبعاته سنة ١٧٧٨م، في «**أكسفورد**» عشر سنوات قبل الثورة الفرنسية.

وحتى المرأة لم تسلم من إهانة هؤلاء المتنطعين، فكانت تعتبر من أسباب الشؤم على الرجل وأداةً في يد الشيطان للتنكيل بالرجل وإخراجه عن الصراط المستقيم، في الوقت الذي لمعت في الشرق «**رابعة العدوية**» و «**شجرة الدر**».

المرأة شريكة الرجل في النهضة

فيما كانت المرأة تعتبر في الغرب وفق الرؤية الكنسية الإقصائية «**أداة في يد الشيطان للتنكيل بالرجل**»، اعتبرت المرأة على مستوى التصور العقدي الإسلامي عنصرا منافسا للرجل في شتى المجالات الحياتية وإحدى الدعامات الأساسية في النهوض الحضاري. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوانثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

لذلك كان من أولويات البناء المجتمعي مشاركتها، في كل الميادين وعلى رأسها المحاضن العلمية التعلمية، متمدرسة وُدَرِّسَة ومتربيةً ومربيةً. فالنظام العام يقوم على مبدأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**النساء شقائق الرجال**».

وفي هذا الصدد نجد شهادة مارك غراهم(Mark Graham)، المستشرق الأمريكي، فيقول: «بينما كانت إسبانيا الإسلامية لم تزل أبعد ما تكون عن مجتمع متحرر، إلا أنها أعطت المرأة خيارات أكثر من أي مكانٍ آخر في أوروبا، وكالعادة كان المنزل مجال نشاطهن المألوف، ولم يكن تعليم النساء أمرا غير معروف، حتى إنهن كن يلقين محاضرات عن القانون وعلم الدين، **وتباهت الأندلس بالكثير من مدارسها المختلطة، حيث تستطيع الزوجات الحضور مع أزواجهن أو البنات مع آبائهن، وحصلت على الشهادات كالرجال تماما، مما خولهن حق التدريس أو حتى افتتاح مدارسهن الخاصة، حتى إن أحد الأمراء تزوج جارية إفريقية لإعجابه بإنجازاتها الفكرية**.

وعملت الكثير من النساء كناسخاتٍ للكتب، حيث كن ينسخن القرآن بخط اليد لعامة الناس الذين يشترون الكتب، **وافتخرت مطبعة قرطبة في إحدى المرات بمئتي امرأة من الناسخات**، وكانت الكثير منهن يُعِلْنَ عائلاتهن من هذا الدخل، وإن مجرد فكرة أن عامة النساء يمكنهن القراءة كانت صاعقة للمسيحيين في الشمال».

فعلى سبيل المثال اشتهرت الخطاطة الأندلسية لُبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر (ت.٣٦٦هـ)، حتى قال عنها ابن بشكوال: «**كانت حاذقة بالكتابة، نحويةً شاعرةً، بصيرةً بالحساب، مشاركةً في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عروضية، خطاطة جداً. وتوفيت سنة أربع وسبعين وثلاث مائة**».

كما عرفت فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب المعروف بالشبلاري، مولى بني أمية، فهي كاتبة ابنة كاتب، قال عنها ابن بشكوال: «**كانت كاتبةً جذلة متخلصة عمرت عمراً كثيراً واستكملت أربعاً وتسعين سنة تكتب على ذلك الكتب الطوال، وتجيد الخط، وتحسن القول. كما «شغفت النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب، وإنشاء المكتبات، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم، وكانت من أبرع نساء عصرها، علماً وأدباً وشعراً، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة.**»

اكتشاف أمريكا

لا يختلف اثنان في أن الرقي الحضاري بالأندلس بشهادة كافة المستشرقين شمل جميع القطاعات السياسية والإدارية، والقضائية والعسكرية والفكرية، والفلاحية والصناعية والاجتماعية، بفضل مقدرة الأندلسيين وكفاءتهم وخبرتهم في مجال الحكم والإدارة والتدبير والتسيير. حتى أن بعضهم تطلعوا إلى اكتشاف مجاهل بحر الظلمات (أي المحيط الأطلسي) خاصة بعد الآلات الفلكية المخترعة التي تحدد الاتجاهات كالاصطرلاب. فكان أعظم إنجازٍ لأمراء البحر الأندلسيين أنهم وصلوا في اكتشافاتهم البحرية إلى إحدى جزر البحر الكرايبي المتاخم للساحل الأمريكي، الأمر الذي يؤيده علماء البحر بأن وصول الأندلسيين إلى الشاطئ الأمريكي عبر بحر الظلمات قد تم على أيديهم قبل أن يصل إليه البحار المغامر كروستوف كولومب على ظهر باخرته «**سانتاماريا**» سنة ١٤٩٢م.

تحدثت الكتب العربية عن أمريكا، لكنها لم تذكر لفظ أمريكا بالطبع، ففي الماضي كانوا يقسمون العالم إلى مناخات، وكانوا يعدون أمريكا تابعة لإفريقيا من حيث المناخ. وكان العرب قديما يسمون المحيط الأطلسي «**بحر الظلمات**». وقد ذكر المؤرخ المسلم أبو الحسن علي ابن الحسين المسعودي (٨٧١ـ٩٥٧)؛ في كتابه «**مروج الذهب ومعادن الجوهر**» المكتوب عام ٩٥٦ ميلادية «**أن خشخاش بن سعيد بن أسود قد أبحر من مدينة ولبة ـ داخل هذه المدينة توجد منطقة تسمى بالاتينية (Palos de la Frontera)ـ ومن هذه المنطقة قام أمير البحر خشخاش بالإبحار منها في سنة**

٨٨٩م. وقد عاد خشخاش محملاً بحمولات الكنوز الثمينة وهو نفس الشيء الذي وجده كريستوف كولومبوس، الكثير والكثير من الذهب. وطبقًا لبعض العلماء والمؤرخين فإن كولمبوس قد وصل إلى أمريكا بعد الاستعانة بخرائط المسعودي في فترة الحكم الملكي الإسباني، هذا، والجدير بالذكر أن كريستوف كولومبوس قد أبحر أول مرة أيضًا من مدينة ولبة.. وقال الخشخاش لما عاد من رحلته إنه وجد أناسًا في الأرض التي وصل إليها، ووصفهم. ولما رسم المسعودي خريطةً للعالم، رسم بعد بحر الظلمات أرضًا سماها: «الأرض المجهولة»، ولم يدّع أنه ليس بعد بحر الظلمات أي أرض كما كان الأوروبيون يدعون في خرائطهم وكتبهم. أي إنه في القرن التاسع الميلادي كان المسلمون يعرفون أن أرضًا هناك وراء بحر الظلمات».

«وهكذا حول الحكم العربي-الإسلامي- إسبانيا خلال مائتي عام من بلد بدائي الحضارة إلى بلد راقٍ في أوربا، وجعل منها مركزا للحضارات والعلوم والفنون للقارة الأوروبية مدة خمسمائة عام، دون أن يعتدي على مسيحيتها».

وشهد شاهد من أهلها

آراء الأب خوان أندريس Juan Andrés (١٧٤٠-١٨١٧) في القرن الثامن عشر.

ما بين ١٧٨٢ و١٧٩٨ نشر الأب خوان أندريس - وكان يسوعياً فُصِل من هذه الجماعة وطرد من إسبانيا - كتاباً باللغة الإيطالية في ثمانية أجزاءٍ سماه "**أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة**"

(تُرجم إلى الإسبانية بين سنتي ١٧٨٤ ـ ١٨٠٦) قال فيه مؤكداً: "**إن الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوروبا يرجع إلى ما كتبه العرب**".

والواقع أنه وجد أمامه شعباً قطع في طريق الحضارة مراحل واسعة المدى، وشعوباً حوله متأخرة في ميدانها، وتراءى له ـ بطبيعة الحال ـ أن الأول يمد الثانية من ثروته الأدبية، وقال: "بينما تصرف المدارس الكنسية جهدها إلى تلقين الأناشيد الدينية، وتعلمهم القراءة وعد الأرقام، وبينما نجد الناس في فرنسا كلها يُهرعون إلى مِتْز (metz) وسْواسُّون (Soissons) بكتب أناشيدهم الكنائسية؛ لكي يقوموها على النحو المتبع في كنائس روما، نجد العرب يبعثون السفارات لاستجلاب الكتب القيمة ما بين إغريقية ولاتينية، ويقيمون المراصد لدراسة الفلك، ويقومون بالرحلات ليستزيدوا من العلم بالتاريخ الطبيعي، ويُنشئون المدارس لتُدرس فيها العلوم بشتى صنوفها". ثم يذكر الترجمات التي قام بها العرب عن آثار الفرس والهنود والسريان والمصريين والإغريق خاصّةً، مشيراً إلى ما كان له أثر في بعث الحركة الإسكولائية من الكتب التي نُقلت من العربية إلى اللاتينية.

وذهب "**أندريس**" إلى أن قيام التأليف العلمي في أوروبا (في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية) مرجعه إلى العرب، وذكر تأييداً لرأيه أسماء "**جِرْبِرتوس**" وكومبانو دي نوفار (Compano De Novar) وأدِلاَرْد البتاني (AdelardusBatenese) ومُورلي Morlay وألفونسوالعالم (Alfono el Sabio)، وقال: «**إنهم أعلام حركة انتقال علوم العرب إلى أوروبا**». وذهب إلى أن روجر بيكون Roger Bacon استقى مادة مؤلفه عن العدسات من الكتاب السابع

من "**بصريات**" الحسن بن الهيثم، وأن فيتليون Vitellion اختصر النظريات التي أودعها ذلك العالم المسلم في نفس الكتاب وشرحها، وأن ليوناردوالبيزي Leonardo Pisano أخذ عن مؤلفات العرب علم الجبر، ونقل عنهم الأرقام وأدخلها إلى أوروبا وعلّم أهلها إياها (وقد درس جِرْبِرْتوس"**علم الحساب**" العربي في إسبانيا وأدخله إلى المدارس الأوروبية) وأن أرناندوفيلانو Arnando di villianova "**تلقّى تعليمه كله في إسبانيا على أيدي العرب، وعن كتبهم ومدارسهم أخذ المعارف النافعة في الطب والكيمياء التي نشرها في أوروبا**".

وذهب أندريس كذلك إلى أن رايموندولوليو (Ramon Llull) مدين للأدب العربي في كثير، وأن أعلام الطب الأوروبي قبل النهضة؛ من أمثال جلبرتو ويوحنا الجودِّسديني Johannes vonGoddesden وفابريتسيوس (فبريزي) أكوابندنتي Etlmo da AquapendengFabrizi Gero ـ إنما نهلوا من كتب العرب، ومن مؤلفات أبي القاسم الزهراوي على وجه الخصوص؛ وأن ديكارت أخذ عن أعلام الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الرئيسي الذي يقول: "**أنا أفكر إذا أن موجود**"، وأن "**يوحنا كِبْلر**" استوحى اكتشافه للأفلاك الدائرية للكواكب من كتابات البطروجي؛ وأن بعض آراء القديس توما الأكويني في الإلهيات مستقاة من كتب العرب. ثم يقول: "**فإذا لم يكن للعرب من الفضل إلا الاحتفاظ بذخائر العلوم التي أهملتها الشعوب الأوروبية، ونقلها، وإيداعها أيدي الناس عن طيب خاطر، فهم حقيقون من أهل الأدب المحدثين بالشكر والعرفان**".

أما عن إسبانيا خاصة فقد أشار هذا اليسوعي إلى حقيقة خطيرة [أثبتها البحث العلمي فيما بعد]، وهي استعمال الناس في الأندلس للغتين الدارجتين: إحداهما عربيةٌ والأخرى عجميةٌ إسبانية. وذهب إلى أن الشعر الإسباني إنما نشأ ـ أول أمره ـ تقليداً لشعر العرب؛ وقد استنتج ذلك استنتاجًا، وقال: إن اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي أن يدفع الأول إلى تقليد الآخرين.

«...إذا لاحظنا أن أسلافنا السكسون في هذا العهد كانوا يسكنون الأكواخ ويفترشون القصيل، وأن لغتنا لم تكن تكونت بعد، وأن القراءة والكتابة كانتا محصورتين في عدد قليل من الرهبان- عرفنا ما كان للعرب من مدنية عجيبة، وحضارة منقطعة النظير، وتظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن إذا ذكرنا أن أوربا كلها في هذا العهد كانت غارقة في حمأةٍ من الجهل وخشونة الأخلاق، وأنها لم يكن بها شيء من آثار المدنية إلا ما تبقى للإمبراطورية الرومانية من أطياف القسطنطينية وبعض أجزاء إيطاليا»

ستانلي لين بول

الإشعاع الحضاري

إطار مرجعي وخصائص النهضة الأندلسية

إن السر الأوّل في النهوض هو الشعور بالمسؤولية في وراثة وتوريث وظيفة الاستخلاف في الأرض، هوالالتزام بالدور المنوط بكل فرد داخل جسد الأمة وموقعه داخل البنيان المرصوص؛ هو تعبيد الحياة لله بتجرد تام والعمل على نشر قيم الإسلام السمحة بالحكمة والبصيرة وذلك بوضع آليات تنزيل المفاهيم لبناء الأمة الشاهدة التي يُحتدى بها: فقه للدين وفقه للواقع وفقه للتنزيل.

«وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ» **(البقرة: ١٤٣).**

«وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤» **(آل عمران: ١٠٤).**

«كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ» **(آل عمران: ١١٠)**

إن رسالة الأمة ووظيفتها وموقعها، كما تحدده آية البقرة وتفصله آيتا آل عمران، «هو الشهادة على الناس، وهو جَعْلٌ من الله رب الناس، ملك الناس، إله الناس، كما جعل آدم في الأرض خليفة، وكما جعل إبراهيم إماما للناس، كما جعل البيت مثابة للناس..

ولا شهادة بغير أهلية للشهادة، ولو في الأمور الصغيرة «وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ» (الطلاق: ٢) «مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ» (البقرة: ٢٨٢) فكيف بالشهادة على الناس كل الناس؟

وشروط الأهلية في الآية:

أولا: أن تكونوا أمة؛ ولا أمة بغير وَحْدَةِ ما يُؤَمّ، ولا وحدة بغير قَصْدٍ من يَؤُمُّ ومن يُؤَمّ. إن مدار الأمر كله في اللغة على القصد، ومدار الأمة كلها على الوحدة في ذلك القصد.

ثانيا: « أن تكونوا وسطا؛ ولا وسطية بغير خِيَرية، كما نصت الآية الأخرى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ » (آل عمران: ١١٠). ولا خيرية بغير قوة وأمانة «إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ » (القصص: ٢٦).

ثالثا: لا بد من الشهود؛ أي **الحضور لأداء الشهادة**. وهوالتواجد الفعلي والنوعي في كل المواقع والمجالات كشخصية ذاتية أو معنوية فاعلة تتسم بالقوة العلمية والسلوكية المؤثرة في محيطها.

وحين تكون الشهادة بالخيرية؛ أي بالحال أساسا قبل المقال، **ومن أمة لا من أفراد**، وعلى الناس جميعا لا على بعضهم، **فإن الشهود والحضور لا بد أن يكون حضاريا أي حضورا بالإمامة في كل المجالات، وعلى جميع المستويات، وفي كل الأوقات.**»

لذلك كان جيل الفاتحين الذين تشربوا بفيوضات الوحي ونهلوا من منبعه الصافي محققين مقصد الإمامة بما تقتضيه من معاني القوة؛ من الريادة والسيادة في كل المجالات؛ أي التميز والصدارة فالقيادة على مستوى الاستمداد والإعداد والامتداد... يجسدون هذا الأنموذج الذي سوف يحتدى به؛ قوة إيمانية... قوية علمية... قوة تربوية... قوية اقتصادية... قوة اجتماعية.. قوة حقوقية... قوة عسكرية...

«لقد تجلى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوروبية الحديثة، وظهرت بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر آداب تعد من أعظم ما عُرف، وتشهد الإنتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب، وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوروبا النصرانية، فجاء هذا مسوغًا للرأي القائل إن العرب كانوا أساتذةً لنا، وما أتى به العرب من المواد التي لا تقدر بثمن عن تاريخ القرون الوسطى ومن كُتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية، وما جاء به العرب من صناعةٍ منقطعة النظير، ومن مبانٍ دالة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم ومن اكتشافاتٍ مهمة في الفنون من ناحية أخرى، كلها أمورٌ يجب أن ترفع في أعيننا شأن الأمة العربية التي ازدريناها زمنا طويلا»..

كانت هذه شهادة المستشرق الفرنسي لويس بيير أوجين (Louis Pierre, Eugèn) (١٨٠٨ – ١٨٧٥ م) في حق العلماء المسلمين إبان العصر الذهبي للأندلس، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الرقي والتطور الذي ساد البلاد في تلك الفترة من الزمن وانتقال الحضارة بطريقةٍ أو بأخرى لباقي الأرجاء من أوروبا النصرانية.

نُقلت علوم الأقوام السابقين من الرومان والإغريق واليونان إلى الأندلس، وتمت ترجمتها إلى العربية من قبل العلماء الأندلسيين، اطلعوا عليها ودققوا فيها ثم طوروها واكتشفوا وأبدعوا ما لم يكن معروفا من قبلهم، وهكذا عرفت الأندلس تطورا كبيرا، وكان السر في انطلاق عديدٍ من الابتكارات هو محاولة ترجمة آيات القرآن على أرض الواقع كما سنرى فيما سيأتي، ومنه سال مداد النور ليدخل كل بيت وتتوضع قطراته في مختلف ميادين الحياة..

قرطبة قاطرة النهوض

كانت قرطبة في زمنها تضاهي مدنا عملاقة في وقتنا الحالي، من حيث عدد السكان والمرافق والخدمات، وكان يأتيها الناس من كل البلاد من أجل طلب العلم أو السياحة أو الاستشفاء..

«...في وصف قرطبة وما كانت فيه من نهضة وازدهار ومجد، إنما يعود زمنه إلى القرن العاشر، وإذا لاحظنا أن أسلافنا السكسون في هذا العهد كانوا يسكنون الأكواخ ويفترشون القصيل، وأن لغتنا لم تكن تكونت بعد، وأن القراءة والكتابة كانتا محصورتين في عدد قليل من الرهبان- عرفنا ما كان للعرب من مدنية عجيبة، وحضارة منقطعة النظير، وتظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن إذا ذكرنا أن أوربا كلها في هذا العهد كانت غارقة في حمأةٍ من الجهل وخشونة الأخلاق، وأنها لم يكن بها شيء من آثار المدنية إلا ما تبقى للإمبراطورية الرومانية من أطياف القسطنطينية وبعض أجزاء إيطاليا»

ظلت قرطبة عاصمة لمملكة العرب مدة ٥٠٠ سنة، وكان سكانها يزيدون عن المليون نسمة؛ وكان بها البساتين النضرة والحدائق الغناء الممتدة مسافة عشرة أميال، ولها ضاحية تمتد ٢٤ ميلا، ويقال أنها كانت تحوي ٦٠ ألف قصر، و٢٠٠ ألف بيت و٨٠٠ ألف متجر، و٣٨٠٠ مسجد، و٧٠٠ حمام عام، ومع ما في هذه الأرقام من مبالغة، إلا أنها تعطينا صورةً عن عظمة هذه المدينة التي كثرت فيها المكتبات، ومنها مكتبة الأمير التي كانت تحتوي ٤٠ ألف مجلدٍ، وقد طبقت شهرة جامعة قرطبة الآفاق، **واكتظت قرطبة إلى جانب ذلك بالمدارس الابتدائية المجانية للفقراء**، وقد كتب أحد المؤرخين يقول «**بينما كان معظم الناس في قرطبة يقرؤون ويكتبون، كان أهل أوروبا المسيحيون في جهل مطبق، اللهم رجال الدين منهم، ولم ينج من هذا الجهل حتى أعلى الطبقات الأوروبية**».

هكذا كان الحال في قرطبة العظيمة، وطارت شهرتها في أرجاء أوروبا حتى سماها الكتاب الألمان بزينة الدنيا، وقد أم جامعتها الطلاب من جميع أنحاء الدنيا، وشعت منها الفلسفة العربية حتى وصلت جامعات أوروبا الكبرى.

في المقابل لم يبدأ إنشاء المدارس في فرنسا سوى في القرن الحادي عشر، وكان يشرف عليها ويقودها في ذاك الحين من تعلموا على أيدي المسلمين في الأندلس أو في صقلية، وكانت أشهر هذه المدارس مدرسة ريمس، التي أنشئت بأمر البابا سلفستر الثاني(Sylvestre II)، وهوالبابا الذي تعلم في جامعة قرطبة، بل ونزل إلى الشمال الإفريقي فتعلم كذلك في جامع القرويين بالمغرب.

الإشعاع العلمي

في مجال العلوم الشرعية

حث الإسلام على طلب العلم والتبحر فيه، فمنذ أول نزوله كانت الأولوية فيه لـ «اقرأ»، ولتحقيق هذا على أرض الواقع كان يُلجأ في الغالب لتعلم العلوم الشرعية أولا، لتكون الركيزة والمنطلق للعلوم الأخرى، فكانت مناهج التعليم في غرناطة مقسمة إلى مراحل أساسها تعليم العلوم الدينية وفي مقدمتها القرآن الكريم قراءة وكتابة شأنه في ذلك شأن كل البلاد الإسلامية.

ويأتي تعليم القرآن الكريم في أولى المراحل ومقدمة مواد التعليم لما له من أهميةٍ في تحقيق عدة أهدافٍ لأن تعليم الوالدان للقرآن شعارٌ من شعائر الدين الذي أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه، في جميع أمصارهم، وذلك لما له من أهمية في ترسيخ الإيمان وعقائده في النفس، لذلك صار تعليم القرآن الكريم أصل التعليم الذي يستند عليه ما يحصل عليه الفرد من الملكات، وذلك لرسوخه في الصغر، والذي يكون أصلا لما بعده من تعليم.

وبهذا يتعلم الصبي نطق العربية بدقة، وذلك لأن قراءة القرآن، هي أفضل ما ينطق ويقرأ في كل العالم الإسلامي، لأنه يمد الذاكرة بجملٍ عربيةٍ فصيحةٍ، وتجعل التلميذ مستعدا لدراسة النحو الذي سوف يأتي فيما بعد، فيتخذ بذلك من آيات القرآن المثل والشاهد.

ولم يكن اهتمام معلمي الأندلس مقتصرا على تعليم القرآن الكريم فقط وإنما كانوا يهتمون بتعليم الطفل أيضا رواية الشعر وقوانين العربية وتجويد الخط والكتابة، وبذلك يخرج التلميذ من عمل البلوغ إلى الشبيبة وقد تعلم بعض الشيء العربية والشعر والبصر بهما، وبرع في الخط والكتابة، وبذلك يكون سندا لتعلم العلوم الأخرى

من علماء التفسير الذين برزوا:

أبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية (٥٤٦ هـ) صاحب «**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**».

من علماء القراءات: الحافظ أبي عمرو الداني (٣٧١ هـ ـ ٤٤٤هـ).

يمثل أبو عمر الداني بن سعيد الأندلسي منعطفا كبيرا في تاريخ القراءات القرآنية وعلومها في المدرسة المغربية والمشرقية معا، كما يمثل في عطائه العلمي وتنوعه وسعة أفقه في مباحث هذا الفن قمة ما بلغ إليه البحث والتأليف في هذا الطور من نضج وعمق، وما تحقق من خلاله لأبي عمرو وفئة معدودة من أئمة زمنه خلال المائة الخامسة من رسوخ قدم في العلم والفهم وتبريز في التوجيه والتأصيل، وبراعة في التحليل والتعليل، ولا سيما هذا الإمام الحافظ الفذ المتميز إلى الحد

الذي يمكن معه القول عنه: إنه الواضع الحقيقي لعلم القراءات بمعناه الشامل وهيكله المتكامل.

وقد عاش بضعة وسبعين عاما، توزعها عمله الدائب بين عهد الطلب بقرطبة ثم عهد التنقل بين حواضر شرق الأندلس بحثا عن ملاذ آمن منذ أوائل المئة الخامسة، ثم عهد التصدر والاستقرار بدانية «**مدينة القراء**» أو «**معدن القراء بالأندلس**» كما سماها ياقوت.

في مجال الفكر والفلسفة

لم يكن المسلمون مجرد حفظة للتراث اليوناني، أو قنطرة عبر عليها هذا التراث من اليونانية القديمة إلى أوروبا في العصور الوسطى وما أعقبها من عصور. فمن يقف على تراث الكندي، أو ابن سينا، أو ابن رشد مثلا، فإنه سيكتشف أن هؤلاء حتى في شروحهم وتلخيصاتهم للفلسفة اليونانية كانت لهم ابتكاراتهم التي تكشف عن أصالتهم.

لقد أثر ابن رشد في استقلال وتحرير العقلية الأوروبية من سلطة الكنيسة بدفعه الوعي نحو التفكير الحر المنعتق من استبداد الخرافة والجهل، وقد برزت مراحل هذا التحول خصوصا في بداية القرن الثاني عشر (أواخر ما اصطلح عليه العصور الوسطى)، جاءت هذه الفترة بعد سقوط طليطلة في يد الإسبان وبداية أكبر حركة ترجمة في تاريخ أوروبا؛ ترجمة الفلسفة العربية إلى اللاتينية.

وعن هذا يقول جورج سارتون George Sarton (١٨٨٤ـ ١٩٥٦) في كتابه «**المدخل إلى تاريخ العلوم**»: «**إن ابن رشد كان من أكابر فلاسفة الإسلام. ولقد أثَّر على فلاسفة أوروبا بفلسفته أكثر**

من أرسطو نفسه. ودون ريب، فإنابن رشد هو مؤسِّس الفكر الحر: فقد فتح أمام علماء أوروبا أبواب البحث والمناقشة علىمصراعيها؛ لذا فإنه أخرجها من ظلمات التقييد إلى نور العقل والتفكير»

في مجال الرياضيات

قدم العرب والمسلمون الشيء الكثير للرياضيات، بل إن بعض فروعها اختراع عربي كعلم الجبر الذي مازالت أوروبا حتى يومنا هذا تطلق عليه هذا الاسم، ومن الأسماء التي برزت في هذا المجال في العهد الأندلسي نجد أبا زيد عبد الرحمن بن السيد، ذكره صاعد الأندلسي وصنفه ضمن الرياضيين الشبان في عصره، حيث يقول: «**وفي زماننا هذا أفراد من الأحداث منتدبون بعلم الهندسة.. ومنهم من أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد**»، كما ستصل شهرة هذا الرياضي إلى المشرق حيث يتحدث عنه ابن أبي أصيبعة(ت.٦٦٧ – ١٢٦٩) مع إضافة هامة وهي أن هذا الأخير لا يصف ما قام به الرياضي البلنسي بالعمل الهندسي بل يتحدث عن «**هندسة ابن سيد**»، مما يدل على أن هذا الأخير لم يكتف بحل قضايا هندسية فقط أو شرحها بل وضع أسسا هندسية جديدة كامتدادٍ لما قام به المهندسون السابقون عليه. وإذا كانت هذه المعلومات المتفرقة تدل على الأهمية الكبرى على ما قام به هذا المهندس، فإن العقبة الأساسية كانت هي الافتقار لأعماله، غير أنه تم مؤخرا العثور على شذرات منه تعتبر كافية لإبراز قيمته.

ويتمثل ذلك فيما أورده ابن باجة (ت ٥٣٢ – ١١٣٨) في رسائله الفلسفية تحت عنوان «**إبانة فضل عبد الرحمن بن سيد المهندس**» شرحا لأعماله الخاصة في بعض المواضيع الهندسية ذات

العلاقة بالمخروطات. وهناك شهادة أخرى في رسالة وجهها ابن باجة إلى تلميذه الوزير أبي الحسن بن عبد العزيز ابن الإمام السرقسطي (ق. ٦ هـ ـ ١٢م) تحدث فيها عن ابن السيد فقال: «**وكنت قد قلت أنه بلغك أن عبد الرحمن بن سيد كان قد استخرج براهين في نوع هندسي لم يشعر به أحد قبله ممن بلغنا ذكره. وأنه لم يثبتها في كتاب، وإنما لقنها عنه اثنان أحدهما أنا، والآخر تلف في حرب وقعت في الأرض التي كنا فيها**».

ويبقى العمل الأهم لابن سيد الذي نعرف عنه بعض المعلومات هو إسهامه في الهندسة الذي يتبع فيه تقليد كتاب المخروطات لأبولنيوس(Apollonius) (٢٦٢ ق.م – ١٩٠ ق.م) وانطلاقا من ذلك درس ابن سيد وجود خواص المنحنيات المستوية ذات الدرجة الأعلى من اثنين التي لا تنتمي للقطوع المخروطية وقدم فيها عملا أصيلا. كما اهتم أيضا بمسألة تثليث الزاوية (أي تقسيمها إلى ثلاث زوايا متساوية) وبمسائل هندسية أخرى. وقد أسهمت أعمال ابن سيد في تواصل البحث الرياضي بين القرنين ٦ـ١٢ و٨ـ١٤ في الأندلس ثم في المغرب العربي.

ويبدوأن ابن سيد قد أنجز أهم أعماله الهندسية في فترة عصيبة من الاضطرابات والحروب والحصارات التي عرفتها مدينة بلنسية في الربع الأخير من القرن الحادي عشر ميلادي. ويلاحظ أن هذه الأوضاع أثرت على سيرورة التعليم لهذا لم يجد ابن السيد سوى طالبين ليلقنهما شيئا من علمه وأعماله.

في مجال الجغرافيا

استطاع الجغرافيون الفلكيون أمثال البتاني وابن يونس والبيروني وابن سعيد وياقوت أن يتقدموا خطواتٍ عما وصل له الأقدمون، فاستطاعوا أن يحددوا بدقة متناهية الموقع الجغرافي للبلدان الهامة بالنسبة إلى خطوط الطول والعرض. وكان من الطبيعي ألا تأتي تلك اللوحات مضبوطةً تماما نظرا لشدة سرورهم وكثرة اندفاعهم، ولكن إذا كان بطليموس قد أخطأ في رسوماتها في بضع درجات، فإن العرب لم يتجاوزوا الواقع الصحيح بدقيقة أو دقيقتين.

وهكذا، صحح المسلمون ما وقع بطليموس فيه من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء أنه بالغ كثيرا في طول البحر المتوسط، وبالغ في تحديد الجزء المعمور من الأرض المعروف له، وجعل المحيط الهندي والهادي بحيرة، وذلك عندما وصل جنوبي آسيا بجنوبي إفريقيا، وبالغ في تحديد حجم جزيرة سيلان، وأخطأ في تحديد وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأ فاحشا، وقد صحح المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، ثم خلفوا للعالم جغرافيتهم الوصفية التي اشترك في إعطاء صورتها الأخيرة جمهرة من العلماء والرحالة طوال خمسة قرون على الأقل، فتركوا بذلك أثرًا لا نظير له من آثار العصور الوسطى.

ويؤكد هذا السبق الدكتور فؤاد سزكين حيث يقول: «**بينما كنت أجري دراسة قبل فترة قصيرة صادفت تحليلا لعالم ألماني يقول فيه شيئا مهما جدا بالنسبة لي، حيث كانوا يعقدون مناقشة تظهر أنه لم يكن في أوروبا أي معلومة عن جغرافيا العالم الإسلامي، وكان ذلك**

الرجل يقول:» يرى من يدرس جغرافية قارة أوروبا أن هذا العلم حتى القرن الثامن عشر لم يضم إلا جغرافية إسبانيا ولم يكن هناك ثمة دراسة تتناول جغرافية بلدان كألمانيا وفرنسا وغيرهما من البلدان الأوروبية»، هذا ما يقوله عالم ألماني عام ١٩٨٢م؛ فيا ترى لماذا يوجد دراسات تتناول جغرافيا إسبانيا ولا توجد أية دراسة تتناول سائر الدول الأخرى؟ الأمر بدهي؛ ذلك أن المسلمين كانوا يعيشون في إسبانيا، أجل إن هذا في الحقيقة شيء مثير للغاية، فهل تعرفون متى رسم الأوروبيون خرائط تعتمد على خطوط الطول ودوائر العرض لبلدان مثل فرنسا والمانيا والسويد، وغيرها من الدول الأوروبية؟ لم يرسموها إلا بعد عام ١٨٥٠م !»

وفي الوقت الذي كان العالم لا يتخيل فيه أن الأرض كرة، لم يكن هناك من يناقش مسألة دوران الكرة حول نفسها سوى ثلاثة من علماء المسلمين في القرن الثالث عشر ميلادي (السابع الهجري)، وهم؛ علي بن عمر الكاتبي، وقطب الدين الشيرازي من الأندلس، وأبوالفرج علي من سوريا، فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم وليلة، وعن هؤلاء العلماء يقول سارتون في كتابه «**مقدمة في تاريخ العلم**»: «**إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن الثالث عشر لم تذهب سدى، بل كانت أحد العوامل التي أثرت في أبحاث كوبرنيس في نظريته التي أعلنها سنة ١٥٤٣ م**»

الجدير بالذكر أن عالم الدين الإسلامي لم يقف في صف العامة، بل وجد في الإسلام ما يؤكد الحقيقة العلمية ويعارض منكريها؛ فينقل ابن حزم مثلا إجماع الأئمة المسلمين على كروية الأرض فيقول: «**قالوا: إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم (رضي الله عنهم) لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها، قال الله عز وجل:** «يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ » (الزمر: ٥)، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من كور العمامة، وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض..»

في مجال الفلك:

يحكى أنه بينما كان يجلس، ذات يوم فلكيان عربيان في باحة الجامع وأمامهما كتاب «**المجسطي**» – ما يعد أكبر تحقيق علمي في الفلك–، مرت بهما جماعة من علماء الدين، فتوقفت مستفهمة عن النبع الذي منه يرتوون. فأجاب أحدهم: إننا نقرأ شرح الآية التالية «أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ » (سورة الغاشية).

وهكذا فإن لعلم الفلك لدى المسلم معنى «**دينيا**» عميقا، وكما قال أحد كبار فلكيي العرب، البتاني(٨٥٠ ـ ٩٢٩)، فإن «**علم النجوم هو علم يتوجب على كل امرئ أن يعلمه، كما يجب على**

المؤمن أن يلم بأمور الدين وقوانينه لأن علم الفلك يوصل إلى برهان وحدة الله وإلى معرفة عظمته الهائلة وحكمته السامية وقوته الكبرى وكمال خلقه».

بهذا اهتم العرب اهتمامًا بالغًا بالآلات الفلكية، وما ورثوه عن اليونان كان بدائيا وأعجز من أن يساندهم في سباقهم نحو الأمجاد التي رسموها لأنفسهم، فكان أن طوروها وزادوا عليها أشياء عديدة وقدموا اختراعات أخرى تشبه المعجزات، مبتكرين بذلك آلات مختلفة للمراقبة والقياسات، أخذها الغرب عنهم وبقي على استعماله لها أمدا طويلا..

ومن بين الأسماء البارزة في هذا المجال نجد العالم أبا القاسم مسلمة المجريطي(٣٣٨هـ/٩٥٠م) الذي اختصر جداول البتاني الفلكية ونقلها مع كثير من العلوم من المشرق العربي إلى بلاد الأندلس، حيث بقِيَت من أهَمِّ مصادر المعرفة هناك، ووُجدَت لها مسارب ومنافذ عبَرَها إلى أوروبا عصر النهضة بعد أن تُرجمت إلى اللغة اللاتينية. لذلك نجد رسالته عن الإسطرلاب يترجمها جون هبالينيس إلى اللاتينية، وكذلك تعليقه على إنتاج بطليموس، ترجمه رودلف أوف برجس الراهب الإنكليزي إلى اللاتينية، إضافة إلى كتاب «**الحساب التجاري**». يقول عنه سيد حسين نصر في كتابه «**العلوم والحضارة في الإسلام**»: «**عُرِفَ المجريطي عند الأوربيين بأنه أوَّل من علَّق على الخريطة الفلكية لبطليموس ورسائل إخوان الصفا والجداول الفلكية لمحمد بن موسى الخوارزمي من علماء العرب والمسلمين في**

الأندلس. كان له شهرة عظيمة في الرياضيات والفلك، إضافة إلى ما ناله من احترام وتقدير لمجهوداته الجيدة في علم الكيمياء».

ويقول أ.ج. هولميارد (١٨٩١ ـ ١٩٥٩) في كتابه الكيمياء حتى عصر دالتون: «**إن أبا القاسم المجريطي يعتبر بحق من أذكى حكماء الأندلس، فكان له شأن في علمي الرياضيات والفلك، فنال شهرة عظيمة بمهارته العلمية**»

في مجال الطب والصيدلة

« **انتشر الطب الإسلامي عبر أوروبا كالنار في الهشيم، ولا عجب في ذلك، لأنه نجح أكثر بكثير من الخرافات والعلاج الشعبي الذي كان الناس مجبرين عليه. عندما اكتشف الأوروبيون فعاليته، اندفعوا للدراسة في «ساليرنو»** (Salerne) وبنوا خلال وقت قصير معاهد مشابهة أقرب إلى أوطانهم أصبحت هذه الجامعات الأولى التي بدأ فيها الأساتذة بالتوسع معتمدين على أهم صادرات المسلمين الثمينة وهو المنهج العلمي، بدأت النهضة الإيطالية فعلا في ساليرنو، وليس في توسكاني، المدينة الدولة»

مارك غراهام

كان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات، وعلى يدهم أنشئت أول مدرسة للصيدلة.. ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئا على ما وصفوه من العلاج للجدري والحصبة وكانت قرطبة في ذلك الوقت المدينة التي يلجأ لها الأوروبيون لتجرى لهم العمليات

الجراحية، وعد الجراح الأندلسي الكبير أبو القاسم الزهراوي (١٠١٣) رائدا ليس في علم الجراحة فقط وإنما في مداواة الجروح وفي تفتيت الحصاة داخل المثانة، وفي التشريح وإجراء العمليات. وقبل برسيفال بوت (Percival Pott) (١٧١٤ـ ١٧٨٨) بثمان مئة سنة اهتم الزهراوي أيضا بالتهاب المفاصل وبالسل في خرزات الظهر (فقرات)، الذي سُمي فيما بعد باسم الانجليزي بوت، بالداء البوتي. كما أنه أول من أوصى بولادة الحوض (Steissgeburt) التي كان يمتنع دوما عنها سورانوس(Soranus) وسابقوه، وهي الولادة المسماة حديثا باسم الأستاذ الشتوتغرتي(نسبة إلى مدينة Stuttgart) في أمراض النساء فالشر Walcher.

ونجح أبوالقاسم في عملية شق القصبة الهوائية (تراكيوتومي) وقد أجرى هذه العملية على خادمه، ووُفِّق أيضا في إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة، محسنًا بذلك عملياته الجراحية ومسهلا بضع الأعضاء، وهو فتحٌ علمي كبير ادعى تحقيقه لأول مرة الجراح الفرنسي الشهير امبرواز باري (Ambroise Paré) عام ١٥٥٢، في حين أن أبا القاسم قد حققه وعلمه قبل ذلك ب ٦٠٠ سنة.

والجدير بالذكر أن كتابه «**التصريف لمن عجز عن التأليف**» المكون من ثلاثين مجلدا، بسبب تعقيده ورفعته استغرق المترجمون الأوروبيون ٣٠٠ سنة حتى يفصلوه ومن ثم يترجموه إلى اللاتينية واللغات الأوروبية

ثم إنه لا يمكننا الحديث عن الصيدلة والعقاقير دون المرور على اسم «**ابن البيطار**» عالم زمانه في العلاج الكيميائي وتراكيب الدواء. فقد اعتمد ابن البيطار المنهج العلمي في البحث والتنقيب، وعلى التجربة والمشاهدة كأساس لدراسة النبات والأعشاب والأدوية، فشرح في مقدمة كتابه المنهج الذي اتبعه في أبحاثه فيقول: «... ما صحَّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لدي بالمخبر لا بالخبر أخذتُ به، وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية والماهية للصواب نبذته ولم أعمل به». ضمّن ابن البيطار كتابه شروحاً مفصَّلة لعدد كبير من الأدوية (١٤٠٠ دواء بين نباتي وحيواني ومعدني، منها ٣٠٠ دواء جديد من ابتكاره الخاص) معتمداً على أكثر من مائة وخمسين كتاباً، منها عشرون كتابا يونانياً. وقد بيّن الخواص والفوائد الطبية لجميع هذه العقاقير وكيفية استعمالاتها كأدوية أو كأغذية.

ويعد كتاب «**الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**» موسوعة في الصيدلة، وقد اهتم دارسوا النبات به اهتمامًا بليغًا حتى القرن السادس عشر الميلادي فجرت ترجمته إلى اللاتينية وطبع بمدينة قرمونة عام ١٧٥٨م، كما ترجمه إلى الألمانية المستشرق فون زونتهايمر (Sontheimer)، ونشره في مدينة شتوتجارت بألمانيا عام ١٨٤٠م. كما ترجمه إلى الفرنسية المستشرق والطبيب ليوسيان لوكلرك (Lucien Leclerc).

«إن العمارة الإسلامية- رغم ثرائها الجمالي الرفيع- هي آخر ما ينبغي الاشتغال به لمن أراد أن يدرس الجمالية الإسلامية في مصادرها الأولى؛ لأن حصون المدائن وجدرانها إنما هي التجليات المادية المعبرة عن أشواق الروح الفياضة عبر القباب والمآذن؛ مندفعة بقوة نحو السماء ! وإنما هي صورة التعبير الرمزي عن معاني الاحتضان العاطفي وقيم الأخلاق الاجتماعية والحنان الريان ! بما امتازت به من حياء، وتستر، وانحناءات، تتلوى أضلاعها الخفاقة بالمحبة بين الدروب ! تسلك بالرجال والنساء مسالك الحشمة الرقيقة والوقار العالي، إلى المساجد وإلى الغرفات والشرفات الكاشفة الساترة ! ثم تنشر أسرارها نقوشا وزخرفة تتبادل الأدوار مع أحرف الخط العربي بشتى أشكاله، في كلمات ناطقة حينا، وناظرة أحيانا أخرى ! كلها تتدلى مثل العناقيد من بين الأقواس، تستقبل مواجيد المحبين وترد سلام المتبتلين، لتتوحد معهم في صلاة أبدية خالدة !»

جمالية الدين فريد الأنصاري

الإشعاع الثقافي والفني

في مجال الترجمة

مثل النشاط اللغوي في التجربة العربية القديمة مظهرا مهما من مظاهر ارتباط التطور الفكري بتطور الخطاب اللغوي بين ميدان المعرفة ونظام اللغة. ولما كان التطور الفكري والحضاري في العربية قد قام على الاستفادة من تجارب الشعوب التي انتظمتها الحضارة الإسلامية بأبعادها الثقافية المتنوعة، فإن تطور العربية لم يكن كذلك ضربا من النمو الذاتي التلقائي، بل كان أيضا شكلا فنيا قائمًا على توسيع متعمد لبنية العربية قصد استيعاب نشاط اجتماعي ثقافي، وإنتاجٍ فكري علمي وأدبي.

وبقيت اللغة العربية محتفظةً بمكانتها الرفيعة عند النصارى، كلغة علم وحضارة لأكثر من مئتين وخمسين سنة بعد سقوط طليطلة في سنة (٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥م)، فقد استمر استخدام اللغة العربية من قبل من كانوا في السابق رعايا الدولة الإسلامية في الأندلس من المستعربين والمدجنين في إسبانيا النصرانية، فاستخدموا العربية في

تحرير عقود الزواج وفي مستندات الملكيات للأراضي وغيرها من المصالح العامة، مما أدى إلى دخول الكثير من المصطلحات العربية في اللغة الإسبانية، واللغة هي خير برهان للتطور الذي وصله أهلها، فهناك آلاف المفردات العربية في اللغة الإسبانية والبرتغالية، وهذا انعكاس لحاجات وضرورات ملحة؛ فقد حدث نفس الشيء بالنسبة للغة اللاتينية في اتخاذها الكثير من المفردات العربية في لغة الأدب واللغة الدارجة.

لقد أثرت الترجمات الضخمة للتراث العربي الإسلامي في معظم مدارس البحث العلمي الإسبانية للتراث العلمي العربي على الفكر الأوروبي، فكانت سببًا في دفع عجلة التقدم والازدهار العلمي الأوروبي ولم تكن باستطاعة أوروبا التقدم بمسيرةٍ حضاريةٍ إنسانية إلا بعد أن عكفت على ترجمتها للعلوم من العربية إلى اللاتينية قرونا من الزمن.

وقام الأساقفة والرهبان والنبلاء بجهودٍ ماديةٍ وعلميةٍ في تشجيع حركة الترجمة للمؤلفات العربية العلمية، كما لم يكن باستطاعة النصارى الحصول على مؤلفات الإغريق وفلاسفتهم إلا عن طريق العرب المسلمين ونقولهم، واستمر الحال على ذلك بضع قرون، وبفضل العرب تمكن النصارى من الاطلاع على مؤلفات بطليموس وأرسطو وغيرهم، فانكشف اتساع آفاق هذه المعارف لا سيما أن المؤلفات اليونانية وصلت إليهم مشروحة ومعلقا عليها ومضافا إليها معارف جديدة، أكسبها العرب ثمرة الازدهار الكبير الذي شهدته الثقافة العربية الإسلامية.

ظهرت الترجمة للتراث العربي في مدرسة طليطلة(Toledo) قبل غيرها من مدن الأندلس بصورة فعالة ونشطة؛ بمرحلة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، ومرحلة من اللغة العربية إلى اللغة الإسبانية مباشرة، وتولى أسقف المدينة ريموند Raimendo (١١٢٦ – ١١٥٢ م)، وكبير مستشاري ملوك قشتالة مدرسة نظامية للترجمة، واعتمد فيها على يهودي متنصر يدعى يحيى بن دريد الإشبيلي وراهب يدعى دومنكو كونديسلفي(Domingo Gondislave)، كلف هذين الأخيرين بنقل الكتب العربية في الرياضيات والفلك والفلسفة، وكان يحيى الإشبيلي يحسن اللغة العربية والقشتالية، ينقل من العربية إلى القشتالية، ويقوم كونديسلفي مباشرةً بترجمتها من القشتالية إلى اللاتينية، وهكذا ذاعت شهرة مدرسة طليطلة للترجمة ووصلت أصداؤها إلى أنحاء أوروبا ليهرع إليها نفر كبير من الدول الأوروبية وتفتح الباب على مصراعيها أمامهم لينهلوا مما جاد به أطباء وعلماء وفلاسفة الأندلس من كنوز علميةٍ أثَّرت بنهضة أوروبا كثيرا.

في مجال الفن

تميز الفن الإسلامي بصفة تجريدية وكان سببا في بروز الاتجاه الهندسي في زخارفه، كما ساده بوجه عام ميلٌ إلى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية. فعمد الفنان المسلم إلى تحوير التماثيل، وقد حوت قصور الخلفاء والأمراء على كثير من شواهد الفنون الهندسية والتماثيل كنافورة بهو السباع بقصر الحمراء وتصاوير قاعة القضاء وقصر البرطل من قصور الحمراء. وبعض النقوش المحفورة في أحواض الرخام وعلب العاج وبعض التحف المصنوعة من المعادن.

لقد استمرت التأثيرات العربية الإسلامية في الأندلس بعد خروج العرب منها، فبعد تحويل المساجد إلى كنائس، بنيت كنائس جديدة تقليدا للفن المعماري الأندلسي، وظهر تأثير العرب في نقش الكتابات على جدران المباني العامة وكتابة الخطوط ووضعها على الأبواب. وقد استعان بعض ملوك الإسبان بالبنائين العرب لعمارة قصورهم وهناك الكثير من المهندسين الإيطاليين الذين زاروا الأندلس وتأثروا بالفن المعماري الإسلامي فنقلوا مؤثراته وملامحه إلى إيطاليا، رغم تطور فن البناء هناك، وقد كان للتجار أثرهم البالغ في نقل معالم الحضارة العربية الأندلسية إلى بقية دول أوروبا.

الجدير بالذكر أنه كان للخط العربي شأنٌ كبير في الزخرفة، ولا غرو فهو ذو انسجام كبير مع النقوش العربية، ولم يستخدم في الزخرفة حتى القرن التاسع من الميلاد، غير الخط الكوفي ومشتقاته. وقد بلغ الخط العربي من الصلاح للزينة ما كان رجال الفن من النصارى في القرون الوسطى وفي عصر النهضة يكثرون معه من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتفاقا من قطع الكتابات العربية على المباني المسيحية تزيينا لها سائرين في ذلك مع الهوى، وقد شاهد مسيو لنغبريهومسيو لافوا وغيرها الشيء الكثير منها في إيطاليا، ومما شاهده مسيو لافوا في مكان الأمتعة من كاتدرائية ميلانو باب مبني على طراز رسم البيكارين يحيط به إفريز حجري مؤلف من كلمة عربية مكررة عدة مرات، وكتابة عربية حول رأس المسيح المصور فوق أبواب القديس بطرس التي أمر بإنشائها البابا أوجين الرابع، وخطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس، ويعقب غوستاف لوبون على هذا بقوله:

«ومن دواعي أسفي عدم ترجمة الكاتب لهذه الكتابات، فلعل الكتابة التي حول رأس المسيح هي كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله !»

«ويتجلى في إسبانيا على وجه الخصوص تأثير العرب المعماري العظيم الذي غفل عن ذكره العلماء.. وقد نشأ عن تمازج فنون العرب والنصارى طراز خاص يعرف بالفن المدجن الذي ازدهر بالخصوص في القرنين الرابع عشر والخامس عشر من الميلاد.. وما أبراج كثير من كنائس طليطلة إلا مقتبسة من المآذن، وليست المباني التي شادها النصارى في الولايات المستقلة في العهد الإسلامي إلا عربية أكثر منها نصرانية، وذلك كقصر شقوبية الشهير.. ولا نجهل أن قصر شقوبية هذا أقيم في القرن الحادي عشر من الميلاد، أي أقيم في أيام السيد بأمر الأنفنش السادس الذي طرده أخوه من ممالكه والتجأ إلى عرب طليطلة ودرس قصرهم فيها وعاد إلى ممالكه وأنشأ قصرا شبيها بها، ومما يزيد قصر شقوبية قيمة إمكان عده مثالا للقصور العربية المحصنة التي أقيمت في بلاد إسبانيا.»

ومن العمائر المدنية التي انتشر بناؤها في الأندلس الحمامات: ولم تكن معروفة من قبل الغزو الإسلامي، ولقد كثر عدد الحمامات في ذلك العهد وكانت تأتي مباشرة بعد المساجد في الأهمية المعمارية ولقد انتقلت فكرتها إلى الأندلس منذ العصر الأموي.

وانتشرت حركة تشييد الوكالات والفنادق وكانت تشيد بالقرب من المسجد الذي يتوسط المدينة، كما اقتضى ازدهار الحركة التجارية ونشاطها في المدن الأندلسية تشييد أسواق تعرف باسم القيصريات.

وقد تفنن الأندلسيون كذلك بصناعة السيوف الثمينة والتروس والرماح والسروج والدروع، وكان الأمراء والسلاطين يهدون بعض هذه السيوف إلى ملوك المسيحية. ويميزها أن مقبضها كان يزين بالذهب والأحجار الكريمة. وقد أهدى أبوالحجاج يوسف سنة ١٤٠٩م سيوفا من الفضة الخالصة إلى دون خوان الثانيJoan II والأمير دون إنريكي ENRIQUEIV.

«إن نقطتي الانحلال والانحطاط في اقتصادنا يمكن تحديدها في عام ١٦٠٩م عندما ابتدأنا بطرد الموريسكيين، وكذلك ابتدأ هبوط الصناعة»

كاميو مانيس

الإشعاع الاقتصادي

تعتمد قوة كل أمة على جانبها الاقتصادي، فما من حضارة بزغ شمسها إلا وكانت لها الريادة في الاقتصاد، وقد شكلت الموارد الطبيعية والمصادر الخامة قوام أي حضارة منذ قديم الأزل، ولطالما كانت القوة الاقتصاد أحد أعمدة الدولة الأساسية.

لقد شكلت الأندلس في ظل حكم المسلمين قوة اقتصادية عظمى فرضت سيطرتها على الاقتصاد العالمي، فكان لها الاكتفاء الذاتي في كل المجالات الأساسية من زراعة وصناعة، مما جعل الناس يحجون إليها من كافة بقاع الأرض للتجارة واكتساب الخبرة هناك..

في مجال الفلاحة

لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي، وادخلوها في بلاد الشام، وآسيا الصغرى وفلسطين، ومصر، وإسبانيا ومنها انتقلت إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية، كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند، ونشروهما في جميع أنحاء الشرق الأدنى،

ومن تلك البلاد نقلها الصليبيون إلى أوطانهم، وكان العرب أول من زرع القطن في أوروبا، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين (أراضي) معظمها جذب قاحل بفضل وسائل الري المنظم.

ومازالت الآثار الباقية لحد الآن في وديان الأندلس من القناطر والجداول الدارسة تشهد على نبوغ مسلمي الأندلس في تنظيم وسائل الري والصرف، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية..

ويعتبر كتاب «**الفلاحة الأندلسية**» لأبي زكريا محمد بن العوام الإشبيلي من أشهر ما كتب في هذا العلم، وقد ترجم في القرن الماضي إلى الإسبانية والفرنسية وقال عنه «**انطوان باسي**» في تقرير قدمه سنة ١٨٥٩ إلى الوطنية الزراعية الفرنسية أنه موسوعة تامة تفرد بها القرن الثاني عشر الميلادي. ويقع كتاب الفلاحة لابن العوام في أربعة وثلاثين فصلا؛ تبحث الفصول الثلاثون الأولى منها الفلاحة بينما تبحث الفصول الأربعة الأخيرة في تربية الماشية، وأكد ابن العوام أنه لم يثبت في كتابه إلا ما جربه مرارا فصح، كما ذكر المصادر والمراجع التي استسقى منها.

في مجال الصناعة

الصناعات المعدنية

صناعة الحديد

يعد الحديد من أكثر المعادن شيوعا في المجالات الصناعية، وكان سببا في ازدهار الصناعة في الأندلس لتوفره في مدن عديدة، فهو

يوجد في مدينة أندة التابعة لبلنسية؛ إذ يوجد في جبلها معدن الحديد، فضلا عن وجوده بكور ألميرية، ويوجد كذلك في مدينة فريش الواقعة غرب فحص البلوط، وفي مدينة ألبيرة، والذي ساعد بدوره على ظهور صناعات معدنية كثيرة، وانتشار مصانع كثيرة، تختص بالحدادة منها في مدينة شلطيش؛ إذ يذكر الشريف الإدريسي أن فيها صنعة الحديد التي يعجز عن صنعته أهل البلاد؛ إذ فيها تصنع المراسي التي ترسو بها السفن والمراكب، كما توجد في مدينة مرسية مصانع لصنع السكاكين والأمقص المذهبة كما كان للأندلسيين الباع الطويل في الصناعة أيضا، فصناعة الجلد والملف والحرير كانت تزخر بها أسواق طليطلةوكوينكا، وثيوداد ريال وسيكوفيا، وغرناطة، وقرطبة، واشبيلية وبايثا، وكذا أمكنة أخرى، فكانت هذه المدن تمون بمنتوجاتها كل أسواق أوروبا تقريبا، فكانت برشلونة تبعث بحريرياتها إلى صقلية بل وإلى مصر، وكانت ترسل في مراكبهم البحرية الخاصة.

وكذا كان يصدر الزرع والملح والنبيذ والأبازير والخشب والحديد والقصدير والرصاص إلى دول أجنبية وخاصة من الشواطئ الشرقية.

أما كوينكا وقرطبة فكانتا تصدران الملف والحرير المصنوع وغير المصنوع.

وكذا كان يصدر بغرناطة الورقومن شاطبة Jativa الورق السميك

وبطليطلة كانت صناعة الجلد المطروز بالحرير والذهب والفضة بلغ غايته في الإتقان.

وكان يصدر من ميناء بلنسية ولشبونة الأبازير بأنواعها.

- الأغطية من جنجلة Chinchila
- السجاد من باسةBazaوكالسينةCalsena
- فراء السمور من سرقسطة Zaragoza
- الخزف المذهب من مالقةMalaga

صناعة الحرير

ازدهرت تجارة وصناعة الحرير في الأندلس في العصور الوسطى وكان لها مكانتها المرموقة ليس فقط في عالم الإسلام وإنما في أوروبا أيضا، جاء هذا التطور في هذا المجال نظرالاعتناء الأندلسيين بزراعة شجرة التوت لإطعام دودة القز والاستفادة منها في صنع الحرير، خاصة في منطقة البشرات وبعض نواحي الأندلس، فيشير المؤرخ عربيب بن سعد (ت ٣٧٠) إلى دور النساء في انتقاء الشرانق ورعاية بيض دود القز من شهر فبراير إلى أن يفقس في شهر مارس من كل سنة.

واشتهرت مدن عديدة في الأندلس بصناعة الحرير. فكانت مدينة المرية من أهم مراكز المنسوجات الحريرية في الأندلس وقدرعدد الأنوال فيها بحوالي٥٨٠٠ نول، ومن أنواع منسوجاتها الديباج الموشى والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني والعتابي الممزوج والثياب المعينة أي التي تزدان بنقط صغيرة تشبه عيون الوحش أو بزخرفة هندسية على هيئة العين. كذلك اشتهرت مدينة إشبيلية بالحلل الموشية ذات الصور العجيبة، والمنتجة برسم الخلفاء فمن دونهم. وبالمثل يقال للثياب الحريرية السرقسطية في شمال الأندلس.

وعدت غرناطة مركزا صناعي وتجاريا لكل ما يتعلق بالحرير، وكان بها زمن بني نصر سوق مركزي للحرير، يعقد في مبنى اسمه القيصورية، ويحضره رجال من بلدان كثيرة وكانت تباع فيه بالإضافة إلى الحرير الخام والمنسوجات الحريرية، الأقمشة، وظفائر الحرير، والمفتولات الذهبية، والكتان. وكانت بضائع هذا السوق تصل إلى الصحراء وضفاف نهر النيجر حسب وثائق ترجع إلى القرن ١٥م، وكان بعض التجار يحملون مواد هذا السوق ويستبدلونها بالعبيد السود يجلبونهم إلى غرناطة، وكان معظم السكان في المدينة في بداية القرن السابع يلبسون حللا من الحرير.

في مجال التجارة

المعارض الدولية للتبادل التجاري

كما كانت حدائق برغوس وبلد الوليد ومدينة الكامبو مدنا خاصة بالمعارض والأسواق للمنتوجات كلها، **فكانت المعاملة فيها بالنقود وقطع الذهب والفضة وقسم كبير من الحوالات**، ويقال إنه قد وصل ما روج في بعض المعارض من الأموال ما قدره ٥٣٠ ألف مليون مرابيديس(Moravides) فلم تكن هذه المعارض للأندلس فقط بل كانت دولية، فكنت تجد فيها السلاهيم والبسط وبعض منتوجات من سوريا والمغرب، وكانت تأتي أيضا من فرنسا أشياء خاصة بالخياطة، ويقول بعض المؤرخين «**إن معرض مدينة الكامبو كانت له شهرة عالمية وكان يعقد مرتين في السنة**»

«سيطر العرب المسلمون على النشاط التجاري البحري من الشرق إلى الغرب، لاسيما بعد فتحهم لبلاد الأندلس، وكان ذلك بسبب ازدهار النشاط الزراعي والصناعي في مناطق نفوذهم، لا سيما في بلاد الأندلس التي تمتعت بظهور نشاط تجاري مميز لكثرة الحاجات المطلوبة والفائضة. فضلا عن ذلك، فإن نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات، يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا، وأكفل بحوالة السوق. وجاء هذا التميز كون التجارة هنالك كانت تجارة داخلية، من خلال نقل البضائع والمواد من الموانئ، وإلى المدن الداخلية، وبالعكس.

وسهلت تلك العملية وجود شبكة الأنهار التي تغطي معظم مدن الأندلس؛ وتجارة خارجية، من خلال استيراد وتصدير البضائع ولا سيما إذا ما علمنا أن بلاد الأندلس كانت سوقا رائجة، لكل البضائع القادمة من خارج البلاد... وما يميز التجارة أيضا هواتجاه التجار المسلمين نحو بلاد المغرب العربي والمشرق... ويمكن القول إنه كان هناك نوع من التبادل التجاري بين بلاد الأندلس وبلاد الغرب، وتكفل بها آنذاك أهل الذمة من التجار سواء كانوا من اليهود أوالنصارى، وكانوا يسمون بالرذانيين، وكانوا يجلبون البضائع من تلك البلاد»

كان لبلاد الأندلس شبكة من الخطوط التجارية المشهورة، لاسيما إذا ما علمنا أن دار الإسلام آنذاك كانت مرتبطة اقتصاديا بشبكة مندمجة متنوعة للغاية من الدروب البحرية والبرية الأساسية، ويذكر الجعماطي في كتابه نقلا عن جاسم مزال، أن شبكة الطريق

البرية بالأندلس قد عرفت تطورا أكبر من الطرق النهرية؛ ذلك إلى عدم صلاحية العديد من أجزاء الأنهار للملاحة. وعلى العموم، فقد بلغت حصيلة الطرق في هذا المصنف ما مجموعه ٥٩ مسلكا رئيسا، و٢٧٣ طريقا ثانويا؛ وجاءت معظم المسافات بالأميال، وهي تتراوح – حسب المحققين– بين ١/٢ و٢/١ كلم؛ بينما وردت أقلها بالمراحل، وقد حددها ما بين ٢٢ و٣٥ ميلا.

دار السكة

ومواكبة للازدهار الاقتصادي الذي عم البلاد أمر الخليفة الناصر سنة ٣١٦ هـ باتخاذ دار السكة في قرطبة لضرب العملة من الدنانير والدراهم وولى عليها أحمد بن محمد بن حدير، وضربت أول دنانيرها ودراهمها يوم الثلاثاء لثلاث عشر بقيت من شهر رمضان من العام المذكور، وكانت الدنانير تضرب من الذهب والدراهم من الفضة. واستمرت هذه الدار بضرب النقود، حتى انتقال الناصر إلى مدينة الزهراء، وأنشأ داراً للضرب فيها، فعطل دار السكة بقرطبة وأغلق بابها، وتقلد عبد الرحمن بن يحيى دار السكة في مدينة الزهراء فاتصل الضرب بها حتى أفول نجم الزهراء في عهد المنصور بن أبي عامر.

أما جباية الأندلس في عهد الناصر فقد بلغت أرقاماً تعد بملايين الدنانير فالجباية من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة وثمانين ألف دينار (أي ما يعادل خمسة ملايين وأربعمائة ألف دينار)، ومن السوق والمستخلص سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار، وأما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان، وكانت أموال الدولة مقسمة ثلاثة أثلاث،

ثلث يصرف على القوات العسكرية وثلث للإعمار والبناء والثلث الأخير احتياطي في خزينة الدولة يستخدم وقت الطوارئ، وقد ترك الناصر في خزائنه عند وفاته «**خمسة آلاف ألف ألف ألف**» (ثلاث مرات من الدنانير) أي ما يعادل خمسة آلاف مليون دينار.

في المجال الأمني والعسكري

بعد أن استتب الأمر لعبد الرحمن الداخل في الأندلس كان أول ما فكر فيه هو بناء جيش قوي يكفل للبلاد الأمن اتجاه التهديدات الداخلية والخارجية، واعتمد في تكوين جيشه أولا على التجانس؛ أي أن تكون عناصره من مختلف أطياف الشعب من مولدين وصقالبة وعرب وبربر.

كما أنشأ دورا للأسلحة؛ فأنشأ مصانع السيوف ومصانع المنجنيق، وكان من أشهر هذه المصانع مصانع طليطلة ومصانع برديل. ويقول المقري في نفح الطيب عن ابن سعيد «**وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر فأكثر همم أهل الأندلس كانت مصروفة إلى هذا الشأن، قال: والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة، وبرذيل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق، والفولاذ بإشبيلية إليه النهاية، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره**»

و حيث أن بلاد الأندلس يحيطها البحر من غالب الجهات كان لا بد أن يكون لديها أسطول قوي يحميها من الغارات، وهكذا قام

بإنشاء أكثر من ميناء، كان أشهرها ميناء طرطوشة والميرية واشبيلية وبرشلونه وغيرها من الموانئ.

هل انتهى حقا العصر الذهبي؟

وهكذا كانت الأندلس أرقى دولة في العالم بفضل سكانها الأندلسيين، والشاهد على هذا قول كامبومانيس الشهير «إن نقطتي الانحلال والانحطاط في اقتصادنا يمكن تحديدها في عام ١٦٠٩م عندما ابتدأنا بطرد الموريسكيين، وكذلك ابتدأ هبوط الصناعة»

وبسبب مرسوم فيليب الثالث خرج عدد كبير من الصناع والزراع الذين ذهب برحيلهم فن الصناعة والنجارة والزراعة وغيرها الكثير... ليستثمروا مؤهلاتهم في البلدان المستقبلة.

ويوضح هذا بشكل مفصل قول غوستافلوبون في كتابه حضارة العرب: «كان من سرعة الانحطاط الذي عقب إجلاء العرب وقتلهم ما يمكننا أن نقول إن التاريخ لم يرْوِ خبر أمة كالإسبان هبطت إلى دركة عميقة في وقت قصير جدا، فقد توارت العلوم والفنون والزراعة، والصناعة، وكل ما هو ضروري لعظمة الأمم، عن بلاد إسبانيا على عجل، وقد أغلقت أبواب مصانعها الكبرى، وأُملت زراعة أراضيها، وصارت أريافها بلاقع، وبما أن المدن لا تزدهر بغير صناعة ولا زراعة فقد خَلَت المدن الإسبانية من السكان على شكل سريع مخيف، وأصبح عدد سكان مدينة مدريد مئتي ألف بعد أن كان أربعمئة ألف، وصارت إشبيلية، التي كانت تحتوي ١٦٠٠ حرفة كافية لإعاشة ١٣٠٠٠٠ شخص، لا تشتمل إلا على ٣٠٠ حرفة، وهذا فضلا عن خلوها من

ثلاثة أربع سكانها كما جاء في رسالة مجلس الكورتس إلى الملك فيليب الرابع، ولم يبق في طليطلة سوى ثلاثة عشر مصنعا للصوف بعد أن كان فيها خمسون، وخسرت طليطلة جميع مصانعها الحريرية التي كان يعيش منها أربعون ألف شخص، ووقع مثل هذا في كل مكان، ولم تعتم المدن الكبيرة، كقرطبة وشقوبية وبرغش، أن أصبحت كالصحارى تقريبا، وزال ما ظل قائما فيها من المصانع القليلة بعد تواري العرب وكان من غياب جميع الصناعات في إسبانيا أن اضطر القوم إلى جلب عمال من هولندا عندما أريد إنشاء مصنع للصوف في شقوبية في أوائل القرن الثامن عشر».

سقطت الأندلس ليخبو معها نور أضاء شبه الجزيرة الإيبيرية وانتشر شعاعه خارجها لثمانية قرون.. ولولا عمران شاهد على تلك الحقبة ومخطوطات حبيسة المكتبات الأوروبية وكتابات تاريخية موثقة، ما ظن أحد أن الإسلام كان هناك على تلك القطعة من البسيطة، ولولا ما أنقذ من كتب لكانت السرقات العملية والأدبية أكثر بكثير..

سقطت الأندلس، لتنهض أوروبا على أكتافها من عصورها المظلمة، لم يكن الأمر محض صدفة أبدا فجل كتب الأندلسيين التي لم تحرق أو تتلف كان مصيرها خزانات الكنائس والأديرة، والمعلوم أنه قد تم حمل ثلاثمئة من كتب الآداب والعلوم ـ التي استثناها الكردينال خمنيس من الحرق – إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة ألكالا دي هنارس(Alcalâ de Henares)، تسمى في الرواية العربية بقلعة عبد السلام أو قلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس؛ أحد أفرع نهر التاجه..

لم تدم المملكة الإسبانية طويلاً، حثت الخطا مولية الأعقاب بعد طرد أبنائها المورسيكيين، توقفت عجلة التطور والرقي بها، لتغرق في أزمات في مختلف الميادين.. وفيما كانت إسبانيا تتخبط محاولة سد الفراغ المهول في اليد العاملة والعقول المفكرة، كانت أوروبا تنهل من قبس وصل لها حاملا علوما وثقافة قل نظيرها.. وبهذا لم يمض وقت على إعلان سقوط الأندلس حتى أعلنت بداية عصر الأنوار في باقي أركان أوروبا..

حين تلاشت الحوافز والغايات التي دفعت بجيل الفاتحين الأوائل ليَسِيحُوا في شبه الجزيرة الإيبيرية ناشرين الرحمة بين الوِهاد، وحين ضعفت الهمم وأصاب الجسد الوهن، حُرِمَ الوارثون المفَرِّطون مناهل التأييد والاستمداد وصُدَّت عنهم سبل الامتداد، فتجرعوا آلام الاستعباد ومواجع الاستبداد وحرقة الإبعاد..

أفول حضارة...

وصل أهل الأندلس إلى قمة الحضارة في زمنهم وحققوا الرفاهية المطلقة... لكنهم في غمرة هذا الأوج الذي تبوؤوه.. انغمسوا في ملذات الحياة ناسين أو متناسين أنهم أصحاب رسالة وتغافلواعن عدو يتربص بهم، انشغل ولاة الأمر بالنزاعات الداخلية، وصارت شهوة الملك هيالمسيطرة على نفوسهم، لدرجة أن سلمت عدة حصون للأعداء وسقطت أخرى تباعا وصولا إلى غرناطة، أجمل مدينة في العالم آنذاك.. كان يسكنها أكثر من مليون إنسان في تلك الفترة.. مدينة العلم والتأليف والاختراعات.. آخر قلاع المسلمين في الأندلس...

وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين حيث بدأت الكنيسة محاولة تنصيرهم بالوعظ والإقناع، ومختلف وسائل التأثير المادية، بيد أن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر، لتجنح الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة، متناسية ما قطعته من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام شعائرهم ودينهم، وقد مثل روح هذه السياسة العنيفة حبران

كبيران، هما الكاردينال «**خمنيس**» (Francisco Jiménez de Cisneros) مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية، والدون «**ديجو ديسا**» (Don Diego) المحقق العامل في ديوان التحقيق الذي مثل أعظم السلطات الدينية والقضائية في إسبانيا[١]

(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. عبد الله عنان – العصر الرابع، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين– ص ٣١٤ (بتصرف)

الهولوكوست القشتالي

تنصير... تقتيل... إبادة... تهجير

كيف يعقل أن يندثر الإسلام ويختفي تماما في بلد تجذر فيه لثمانية قرون وصار سكانه الأصليون مسلمين عن رغبة واقتناع منذ الفتح؟ ألا يبعث هذا الأمر على التساؤل إذا قارنا الأندلس بمناطق أخرى دخلها الإسلام مع الفتح ولكنه لم يخرج وبقي ولو بنسب قليلة.. ما نراه اليوم في بورما هو شبيه لما تعرض له المسلمون في الأندلس على يد محاكم التفتيش تحت إشراف ومباركة البابا، راعي الكنيسة وحامل لواء الرب يسوع والمبشر برسالته السمحة؛ إما أن تَتَنَصَّر أو تُقْتَل أو تُهَجَّر...

كانت الكنيسة تشجع على خطاب الكراهية والتمييز وتوقد بذور الفتنة داخل الوطن الذي تعايش أهله قرونا عديدة تحت سقف الإسلام في احترام متبادل وتسامح تام... لم يعد للحوار مقامٌ ولا للجدل العلمي مكانةٌ.. بل أصبح الإكراه البدني على اعتناق المسيحية عملة

رائجة.. حتى وصلت إلى مستوى جرائم ضد الإنسانية.. هل كانت هذه الممارسات تؤسس لبداية زرع بذور العنصرية واليمين المتطرف؟؟؟؟

و»ما كاد يتم تسليم غرناطة – سنة ١٤٩٢ـ حتى بدأ أعيان المسلمين في بيع أملاكهم وضياعهم إلى القادة والأشراف القشتاليين الذين قدموا للتوطن في المدينة المفتوحة... واتخذت الأهبة من جهة أخرى لنقل المسلمين الراغبين في الهجرة إلى المغرب، وهاجر كثير من أشراف غرناطة...»[١]

سنة ١٤٧٨م أرسل فرناندو وايزابيلا سفيرهما للبابا، للحصول على المرسوم البابوي الذي يسمح لهما بإقامة ديوان التفتيش، حيث صدر المرسوم بالفعل في نوفمبر من تلك السنة حاملا تصريحا بإنشاء ديوان التحقيق في قشتالة وتعيين المحققين « **لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين**»، ثم بدأ تنفيذه في سبتمبر من العام ١٤٨٠م.

رغم خشية فرناندو من عواقب التسرع في تنفيذ سياسة القمع والتعذيب، إلا أنه خضع في النهاية لضغط الكنيسة واستدعى الكاردينال خيمينيس إلى غرناطة ليعمل على تنصير المسلمين، فوفد عليها سنة ١٤٩٩م.

إعدام الكتب وقتل الحضارة

لم تهدأ أحقاد الكاردينال خيمينس رغم توقيع التنصير المغصوب على عشرات الألوف من المسلمين، وتحويل مسجد البيازين إلى كنيسة سميت باسم «**سان سلبادور**»، تعدى الأمر هذا ليرتكب عملا

(١) المصدر السابق ص ٣١٠ (بتصرف)

أقل ما يقال عنه بالبربري، ففي ١٢ من أكتوبر لعام ١٥٠١، أمر الكاردينال بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية والمصاحف من أهالي غرناطة وأرباضها، ونظمت أكداسا هائلة في ميدان باب الرملة ـ أعظم ساحات المدينة ـ ضمت الكتب العديد من المصاحف البديعة الزخرفة، والآلاف من كتب الآداب والعلوم، أضرمت النار فيها جميعا ولم يستثن منها سوى ثلاث مئة من كتب الطب والعلوم، حملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة ألكالا دي هنارس **Alcalá de Henares** ، وهي تقع في جنوب غربي وادي الحجارة في منتصف المسافة بينها وبين مدريد. وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجي عشرات الألوف من الكتب العربية، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإسلامي في الأندلس، هذا، واختلف المؤرخون الاسبان في تقدير عدد الكتب العربية التي صارت رمادا، فيقدرها دي روبلس E.de Robles، ـ الذي كتب بعد ذلك بقرن كتابا عن حياة الكاردينال خيمينيس ـ، بمليون وخمسة آلاف كتاب، فيما يقدرها برمندث دي بردراثا B.de Pedraza بمئة وخمسة وعشرين ألفا، والتقدير الذي عد أقرب للمعقول كان هو تقدير كوندي[١] الذي قدرها بثمانين ألفا[٢].

---

(١) خوسيه أنطونيو كونده José Antonio Conde ـ (١٧٦٥ ـ ١٨٢٠ م) هو مستشرق إسباني، وهوأول مؤلف إسباني يكتب تاريخًا كاملًا لما أسماه «**الاحتلال العربي لإسبانيا**»، وقد صدر هذا الكتاب عقب وفاته.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٦

يقول المؤرخ الأمريكي وليم برسكوت **William Hickling Prescott**[1] عن هذه الحادثة: «**إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل، وإنما حبرٌ مثقف، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى ولكن في فجر القرن السادس عشر، وفي قلب أمةٍ مستنيرة، تدين إلى أعظم حدٍّ بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها..**»

وتبقى عملية الحرق التي أشرف عليها الكاردينال سيسنيروس، دليلا على **إصرار الكنيسة فرض نسيان شامل ومسح التاريخ الأندلسي من الذاكرة واقتلاع الشعب الأندلسي من جذوره**.. إذا علمنا أن مصير الكتب التي نجت كان خزانات الكنائس.. ترى هل من محض الصدفة أن تكون بداية عصر النهضة في أوروبا هي نهاية عصر النهضة في الأندلس؟!

---

(١) وليام هيكلين غبريسكوت، الذي ولد في سالم (ماساتشوستس) ٤ مايو ١٧٩٦ وتوفي في بوسطن (ماساتشوستس) ٢٩ يناير ١٨٥٩،هو مؤرخ أميركي متخصص في تاريخ العالم اسباني

إن ما تعرض له الأندلسيون بعد سقوط غرناطة من حصار ونزع ممتلكات ثم التهديد من أجل تغيير دينهم والدخول في المسيحية قهرا، لم يكن تطهيرا عرقيا موجها ضد العرب، بل كان موجها ضد الإسلام. إذ كانت الفئة المستهدفة من هذا الاضطهاد كل من رفض الخضوع لقرارات الكنيسة وإن كان إيبيريا أبا عن جد قبل دخول الفاتحين.

وهذا يذكرنا في التاريخ المعاصر بمذبحة سربرنيتشا بالبوسنة، إذ تقف المقبرة التي تحتضن رفاث الضحايا شاهدة على فظاعة هذه الجريمة ضد الإنسانية، يرقد هناك أكثر من ستة آلاف من مجمل الضحايا الذين وصل عددهم المؤكد إلى ثمانية آلاف و٧٣٢. مدنيون مسالمون...أطفال ونساء وشيوخ.. فقط لأنهم مسلمون وأبناء الوطن...قتلوا بدم بارد من طرف الصرب...

محاكم التفتيش: جرائم ضد الإنسانية

توفي فرناندوالخامس ملك إسبانيا في (١٧ ذي الحجة ٩٢١ هـ=٢٣ يناير ١٥١٦م) وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة واختيار المحققين ذوي الضمائر الذين يخشون الله لكي يعملوا في عدل وحزم لخدمة الله، وتوطيد الدين الكاثوليكي، كما يجب أن يسحقوا طائفة محمد!

وقد لبث «**فرناندو**» زهاء عشرين عامًا بعد سقوط الأندلس ينزل العذاب والاضطهاد بمن بقي من المسلمين في اسبانيا، وكانت أداته في ذلك محاكم التحقيق التي أنشئت بمرسوم بابوي صدر في (رمضان ٨٨٨ هـ= أكتوبر ١٤٨٣م) وعين القس «**توماس دي تركيمادا**» (Tomás de Torquemada) محققًا عامًا لها، ووضع دستورًا لهذه المحاكم الجديدة، وعددًا من اللوائح والقرارات.

هدفت محاكم التفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على سياسة اسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم

وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازينوالبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يوليو) ١٥٠١م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته «**إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال**».

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع؛ فبمجرد التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يُزج به في السجن، وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات والجرذان، يقيَّد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب، إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، تمزيق الأرجل وفسخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه.[١]

(١) محاكم التفتيش ص٩١ نقلاً عن سقوط غرناطة ص١٠٠

وقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب؛ تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام، وكانوا يتابعون المسلمين حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكّون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته.

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب «**الأوتودافي**» وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة.[1]

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق، تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم التعسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء، بل كثيراً ما

(١) محمد عبدالله عنان ـ ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ص٢٤/٣٢ نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (٣/٢٢٢)

وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لايتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد، بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولايستطيع دفعاً لها، لأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنينهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

موقف المسلمين من هذه القرارات

إن الشعوب المضطهدة والمستضعفة لم يكن لها الكثير من الخيارات للتعايش مع إكراهات الخنوع والذلة غير طرق ثلاث، إما المقاومة بكل الوسائل للظلم وهذا يقتضي تضحياتٍ جسام لعدم تكافئ الفرص بين الطرفين أو الهدنة الاستراتجية تقية.. بغية بناء جيل التحرير المؤمن بالقضية العادلة.. وهذا يقتضي صبرا طويلا وتخطيطا محكما، أو الهجرة من فضاءات القتل إلى عوالم العدل في انتظار «الرجوع»

اختار البعض المقاومة والثورة على سياسة الاضطهاد التي تمارسها الكنيسة، فقد انطلقت عواصف تمرد الموريسكيين منذ ١٥١٠م، وتوالت احتجاجاتهم الساخطة متعالية في كل منطقة عرفت حضورهم سواء كان في شبه الجزيرة الإيبيرية، بمناطق كأراغون وقشتالة أو بجنوبها في جبال البشرات(Las Alpujaras) بضواحي غرناطة، والتي شهدت أعنف المقاومات المسلحة مما جعل مثل هذه الهزات تزيد في عمر الوجود العربي الإسلامي، ليمتد على طوال الأعوام الرابطة بين تاريخ ١٤٩٢، وهو تاريخ تسليم غرناطة، إلى غاية ١٦١٢، وهو تاريخ خروج آخر البقايا العربية الإسلامية من أرض الأندلس المغلوبة. فطيلة هذه الحقبة كان لسان حال المورسكيين هو المقاومات الشعبية المسلحة والمنظمة والمدربة كلسان حال ناطق في وجه زبانية محاكم التفتيش الذين كانوا الخصم والحكم في نفس الوقت، وكانوا الأوصياء باسم الأب والابن وروح القدس، وباسم قداسة البابا الصليبي الذي ما انفك يزيد الطين بلة لإذكاء حمية التعصب والحقد ضد بقايا المسلمين في الأندلس.[١]

اعتناق المسيحية في الظاهر

بينما اختار البعض الثورة المسلحة، فضلت فئة أخرى التماهي مع الوضع الجديد مظهرة اعتناقها للمسيحية ومتسترة على معتقداتها

(١) أ.د. عبد الله حمادي- الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (١٤٩٢- ١٦١٦) ص ٧٣

وشعائرها خفية عن أعين مخابرات الكنيسة في انتظار الفرج.. وقد أُطلق عليهم لفظ «**المدجنون**» فلئن حاولت التعايش وفق الإكراهات المفروضة مستعلمة لغة خاصة بها «**الخيميدو**» إلا أنها مع مرور الزمان سوف تذوب في الواقع التاريخي رغم استماتتها...وهكذا سوف تنشأ أجيال بمناهج تربوية متناقضة...

وإليك مايقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة؛ « **وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف، وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عُمّد أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية- أي الإسلامية-** ».

وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم وكيف كانوا يتحايلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم.[1]

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٢٢٣/٣)

٣.الهجرة

كانت بعض الفتاوى كافية للدفع بالمقهورين للبحث عن أماكن آمنة للاستقرار بسبب ما يتعرضون له من محو للهوية والتعبيد القسري وسلب للمتلكات والأرواح.

«**...أن الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإسلام فريضة غلى يوم القيامة...ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على أولائك الذين استولى الطاغية (الملك) لعنه الله على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز بكل وجه، وحال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع، قال تعالى «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولائك عسى الله أن يغفر عنهم، وكان الله غفورا رحيما**»... وأما المستطيع بأي وجه كانت وأي حيلة تمكنت، فهو معذور وظالم لنفسه إن قام» [١]

(١) أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد الواحد بن علي الونشريسي.المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفرقية والأندلس والمغرب(إشراف محمد حجي)..ج ٢. ص ص ١٢١ـ١٢٢

وانطلقت الهجرات نحو أصقاع الأرض
كمـا بكـى لفـراق الإلـفِ هيمـانُ
تبكي الحنيفيـةَ البيضـاءُ مـن أسـفٍ
قـد أقفـرت ولهـا بالكفـر عُمـرانُ
على ديـار مـن الإسـلام خاليـة
فيهــنَّ إلا نواقيــسٌ وصُلبــانُ
حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما
حتـى المنابـرُ ترثـي وهـي عيـدانُ

أبو البقاء الرندي

عوامل انكسار الأندلس

ألا ليت شعري هل لها من مطالع
مَعَادٌ إلى ما كان فيها من السعد
و هل أذنب الأبناء ذنب أبيهم
فصاروا إلى الإخراج من جنة الخلد

بهذه الأبيات وصف الإمام الكاتب القاضي أبوالمطرف بن عميرة، بلنسية حين حل الرزء بها، وكأنه يرثي بها حال الأندلس كلها ويستشرف ما ستؤول إليه الأمور في نهاية النهاية..

اليوم وبعد مضي أكثر من خمسمئة عام على سقوط غرناطة١٤٩٢م، وطرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية١٦٠٩م، مازلنا لم نلتفت إلى معطيات هذا الدرس ولم نقف عنده، والدرس كله – منذ الفتح إلى السقوط- لم يدرس وفق سنن الله الكونية والاجتماعية في قيام الأمم وسقوطها؛ بل حوله العرب- بخاصة- والمسلمون -بعامة- إلى صفحة

من المجد والازدهار يتغنون بأمجادها في كتب التاريخ المدرسي التي يغلب عليها الابتسار والتلفيق..[١]

وكأن سنن الله كانت بعيدة عنهم فلم يكن سقوطهم عقابا من الله بل كان سقوطهم لمجرد توحد أعدائهم وتمزق صفوفهم وتفرق كلمتهم. لكن لماذا تفرقوا وتمزقوا؟..

كانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده لحظات نهضة ولحظات ركود شأنها شأن أي حضارة، وقبل أن تلفظ أنفاسها.. كان تفرق القوم وندرة الرجل الرشيد فيهم، فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى بن نصير وطارق، ومَنْ بعدهما من ملوك الأندلس الذين حافظوا على وحدة البلاد والعباد. والشاهد أنه منذ أواسط القرن الخامس حصل للأندلسيين ضعف شديد وذلة، وصاروا يهادنون ملوك إسبانيا الشمالية ويدفعون لهم الجزية، حتى أن المعتمد بن عباد – وهوأعظم ملوك الأندلس – كان يدفع جزية سنوية إلى الأذفونش AlfonsoIV ونتج عن هذا الضعف والتفكك سقوط المدن تباعا في أيدي الصليبيين[٢]..

أسباب السقوط

يخضع سقوط الأمم لأسباب كثيرة وليس لسبب واحد محدد، ونستطيع أن نقول: إن هناك أسبابا جوهرية وأخرى مساعدة على السقوط، أو بعبارة أخرى يمكن القول إن هناك أسبابا عامة وأخرى

---

(١) د. عبد الحليم عويس – تجربة الأندلس أسباب السقوط ص ١١٦

(٢) محمد بن موسى الشريف – استجابات إسلامية لصرخات أندلسية، نقلا عن «**نفح الطيب**» ١٣٥ـ١٣٦

خاصة؛ فالأسباب العامة هي التي تتصل بسنن الله الكونية والاجتماعية ويتساوى فيها البشر صعودا أو هبوطا، والأسباب الخاصة هي التي تتصل بالقسمات المميزة لكل أمة، وبطبيعتها الحضارية وتراثها الخاص، وبمستوى التحديات البيئية والنفسية والفكرية التي تحيط بها، والتي توجب عليها التكليف الخاص الذي يؤهلها للاستجابة الملائمة للتحدي.

وعندما نرصد التجربة الإسلامية في الأندلس بهذه الرؤية الحضارية الشاملة المستوعبة للعوامل ـ العامة والخاصة ـ نقع على أسباب كثيرة تفسر لنا أسباب سقوط غرناطة بخاصة والأندلس بعامة.[1]

فمن أسباب سقوط الأندلس:

ضعف الإيمان

يعد هذا من أهم أسباب السقوط وأشدها، ومنه نتجت أسباب أخرى سنراها في التالي.

حين تسرب الوهن لقلوب الكثير من حكام دويلات الطوائف في الأندلس ضعفت العقيدة الإسلامية في النفوس والضمائر وتطويعها لخدمة القومية والعنصرية. فها هو ملك طليطلة، المأمون أراد «**أن يستنجد بالفرنجة على تملك مدائن الأندلس فكاتب طاغيتهم أن تعال في مئة فارس والملتقى في مكان كذا، فسار في مئتين واقبل الطاغية في ستة آلاف وجعلهم كمينا له، وقال: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا**

(١) د. عبد الحليم عويس – تجربة الأندلس أسباب السقوط ص ١٢٠

فأحيطوا بنا، فلما اجتمع الملكان أحاط بهم الجيش، فندم المأمون وحار، فقال الفرنجي: «يا يحيى (وهواسم المأمون) وحق الإنجيل كنت أظنك عاقلا، وأنت أحمق، جئت إلي وسلمتني مهجتك بلا عهد ولا عقد فلا نجوت مني حتى تعطيني ما أطلب، قال: فاقتصد، فسمى له حصونا وقرر عليه مالا في كل سنة، ورجع ذليلا مخذولا، وذلك بما قدمت يداه»[1]

وهكذا كانت البلاد تباع وتعطى رخيصة طلبا لمطامع دنيئة حتى فقد الناس الثقة في حكامهم وقادتهم، ويتضح الأمر من خلال هذا النص: «**حين استشهد حاكم سرقسطة أبو جعفر أحمد المستعين بالله سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك عمادة الدولة بايعه الناس بسرقسطة بعدما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم**»[2]

تعدد الإمارات والولاءات المتصارعة

كانت كل أطراف الجزيرة الأندلسية منتظمة في نسق الأمة الشاهدة، توحيد ووحدة، على مستوى التصور والمنطلقات والمنهج والغاية، تحت إمارة الأمير أوالخليفة، ثم انفرط هذا العقد، فدب الخلاف وعمت العداوة بين أمراء المدن الذين أعلنوها إمارات مستقلة، ولدت ميتة قبل موتها ! وأجهزوا على الجسد الذي كان يجمعهم...

---

(١) «**نزهة الفضلاء**» ٣/ ١٢٨٢

(٢) محمد بن موسى الشريف – استجابات إسلامية لصرخات أندلسية، نقلا عن «**التاريخ الأندلسي**» ٤٠١ـ٤٠٢

«ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بمسقط رأسه، وجعله معقلا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي، حتى لم يبق بأيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة» [١]

وبهذا بدأ تغليب المصالح على المبادئ، وبالتالي التحالف مع أعداء الإسلام ضد إخوان العقيدة وشركاء الحضارة والمصير.

التفكك السياسي

يعتبر التفكك السياسي الذي ساد الأندلس نتيجة انفراط عقد الخلافة الأموية إلى اثنتين وعشرين دولة (طائفة) سببا مباشرا في السقوط، وقد حفل عصر الطوائف هذا بمظاهر سقوط كثيرة وشنيعة تولدت من التفكك السياسي وما نجم عنه من مظاهرالتنافس الرخيص والقتال الداخلي والمجون والعبث..

لقد انتشر عقد الأندلس بين عناصر متصارعة وهي: «**البربر**» في الجزء الجنوبي، و»الصقالبة» في القسم الشرقي، و» العرب» في باقي الأندلس.[٢] حتى قال الحسن بن رشيق:

---

(١) نفح الطيب ١٩ ـ ٢٠

(٢) د. عبد الحليم عويس – تجربة الأندلس أسباب السقوط ص ١٣٠

ممـا يزهدنـي فـي أرض أندلـس

أسـماء معتضـد فيهـا ومعتمـد

ألقـاب مملكـة في غيـر موضعها

كالهـر يحكي انتفاخـا صولة الأسـد

الرقم	الدولة	الحاكم	هـ سنة الانفصال	م
١	بلنسية	المبارك والمظفر	٤٠٠	١٠٠٩
٢	دانية والبليار	مجاهد العامري	٤٠٠	١٠٠٩
٣	البونت	عبد الله بن القاسم	٤٠٠	١٠٠٩
٤	أركش	بنو خرزون	٤٠٠	١٠٠٩
٥	قرطبة	أمويون، بنو حمدون، بن جهور	٤٠٣	١٠٢١
٦	ولبة	بنو البكري	٤٠٣	١٠٢١
٧	غرناطة	زادي بن زيري	٤٠٣	١٠٢١
٨	سنتا مريا	هذيل بن عبد الملك	٤٠٣	١٠٢١
٩	مورو	بنو تزري	٤٠٣	١٠٢١
١٠	مرسية	خيرون العامري ثم بنو طاهر	٤٠٣	١٠٣١

١١	قرمونة	أبو محمد بن برزال	٥٠٤	٤١٠١
٢١	ألمرية	خيرون العامري	٥٠٤	٤١٠١
٣١	رندة	بنو يفرون	٦٠٤	٥١٠١
٤١	شنتمرية الغرب	بنو هارون	٧٠٤	٦١٠١
٥١	سرقسطة	المنذر بن يحيى التجيبي ثم بنو هودة	٨٠٤	٧١٠١
٦١	بطليوس	عبد الله بن محمد	٣١٤	٢٢٠١
٧١	إشبيلية	محمد بن إسماعيل بن عباد	٤١٤	٣٢٠١
٨١	لبلة	أحمد بن يحيى	٤١٤	٣٢٠١
٩١	باجة	الحاجب بن محمد	٢٢٤	٠٣٠١
٠٢	طليطلة	بنو ذي النون	٢٢٤	٠٣٠١
١٢	بربشتر	يوسف بن سليمان	٨٣٤	٦٤٠١

الترف

لم تزل المعاصي والترف سببين لهلاك الأمم، يقول مؤرخ مجهول وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة سنة ٨٨٣هـ « **ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ الأمير أبوالحسن (أمير**

غرناطة) في التقهقر والانتكاس والانتقاص، ذلك أنه اشتغل باللذات والانهماك في الشهوات، واللهو بالنساء والمطربات وركن إلى الراحة والحفلات»[1]

إهمال الجانب العسكري

قصر حكام الأندلس في هذا المجال كثيرا، فهذا أبوالحسن أمير غرناطة قد «**ضيع الجند، وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان... ووزيره يضبط المغارم ويثقلها.. ويجهل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والإحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها، وقتل كثيرا من أهل الرأي والتدبير والرؤساء الشجعان من أهل الأندلس وحصونها**». [2]

ويذكر الذهبي، أنه في معركة العقاب كان أكبر سبب للهزيمة، غضب الجند من تأخر عطائهم.

تحالف جيوش الأعداء

وضع النصارى في شتى العصور تخطيطهم على أسس ثلاثة ثابتة لم تتخلف قط:

- **أولها**: العمل على تفرقة كلمة المسلمين وضرب بعضهم ببعض حتى تذوب معالم العقيدة الجامعة بينهم ويصبح الولاء للمصلحة وليس للإسلام.

---

(١) د. محمد رزوق- الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، نقلا عن «**المعجب**»

(٢) المصدر السابق، نقلا عن «**نبذة العصر**»

- **ثانيها**: العمل على وحدة كلمة النصارى بمؤازرة من الدول الأوروبية وبمباركة من البابا، وكان اتحاد مملكتي قشتالة وأرغون هوالتتويج العملي النهائي لجهود الوحدة.
- **ثالثها**: الغدر الدائم بالمواثيق والعهود، واعتبارها مرحلة تمليها الظروف وفي خلالها يتم اتخاذ إجراءات وضغوط من شأنها إضعاف الطرف المسلم والتمهيد للوثبة الصليبية التالية.

بطء نجدة المسلمين لإخوانهم وخيانتهم

حوصرت طليطلة سبع سنوات كاملة دون أن ينجدها أحد حتى سقطت، وكذلك بلنسية واستمر الحصار عليها عشرين شهرا حتى أكل الناس الفئران والكلاب والجياف ووصل بهم الأمر إلى أن من مات منهم أكلوه، ثم سقطت بعد ذلك..[1]

وصلت درجة الذل والهوان بأمراء المسلمين إلى قاع سحيق وخير مثال على هذا، إرسال أبي عبد الله الصغير تهنئة لملك النصارى بمناسبة استيلائه على مدينة مالقة الإسلامية!كما أن جيوش ملك قشتالة استولت على قرطبة بمساعدة كتيبة أرسلها ابن الأحمر، لم يكتف هذا الأخير بهذا، بل تنازل طواعية عن دانية وأرجونة وجيان وبيع الحجار وقلعة جابر وأرض الفرنتيرة، ومما فعل ابن الأحمر أيضا مساعدته للنصارى بكتيبة من كتائب جيشه عند استيلائهم على إشبيلية، وقد سقطت حولها

(١) نفح الطيب ٦ /١٣١

عشرات المدن والقرى دون قتال بسبب تدخل ابن الأحمر ومنعه إياها من المقاومة بدعوى عبثيتها! كل هذا من أجل حصوله على غرناطة التي كان يحلم بها ولو على أشلاء كل المدن الأندلسية، فقامت غرناطة على أسس بعيدة عن التقوى أوالأهداف الإسلامية من بينها، فكان مصيرها معروفا لمن يدركون سنن الله في كونه.[1]

وأخيرا..

ضاعت الأندلس بعد أن تغيرت النفوس وتفرقت القلوب وذهبت هيبة الدين.. وما واقعنا ببعيد عن كل الأسباب السالفة ذكرها وغيرها مما لا يسع المقام بذكرها.. ما الماضي سوى صفحة للحاضر ومدرسة للمستقبل، ولا يمكن لأمتنا اليوم أن تقوم من ركودها وجمودها دون تعلم الدرس وتفادي أخطاء وهفوات من سبق..

(١) د. عبد الحليم عويس – تجربة الأندلس أسباب السقوط ص ١٢٩

روح الأندلس

الموروث الأندلسي في المغرب الأقصى

وأنت تسير بين الطرقات في مدينة كشفشاون أو قرية من قرى جبالة، في فاس أوالرباط، أو حتى من مناطق الريف الشمالية.. تطل عليك قسمات تكاد تشك أنها عربية.. عيون زرقاء تتماهى مع السماء، خضراء.. عسلية وحتى رمادية..

صبية شقراء تركض ترمي عليك ابتسامة لتختفي في آخر الزقاق، يبلغ أذناك صوت دندنة للحن تعرفه وتجهله.. حتى تتوضح الكلمات تباعا «**تكشبيلةتوليولة...**» تتجمد خطواتك وتقف مستديرا نحو مصدر الصوت لترمق أطفالا راكضين عكس اتجاهك وظفيرة صهباء يلاعبها الهواء تلوح داخل المجموعة تسترق صاحبتها النظر إليك بضحكات بريئة وتختفي.. يمضون إلى أن يبتلعهم الأفق.. وجه من المغرب الآخر هو وهوية أخرى لم تمحها مرور قرون من الزمن..

أشجان الرحيل

من الضفة الأندلسية عبروا البحر نحو العدوة المغربية وانتشروا بالبلد، منهم من هاجر بأهله وماله إثر بداية النهاية، فكانوا أندلسيين ذوي علم وجاه واصلوا مسيرتهم في بلدهم الجديد، ومنهم من هُجِّرَ ورُحِّلَ قسرا بعد دهر من الاضطهاد والمعاناة مع محاكم التفتيش وصدور مرسوم الطرد يوم ٢٢ سبتمبر من العام ١٦٠٩م. من طرف «**فيليب الثالث**» إثر سقوط آخر معاقل المسلمين بالأندلس؛ غرناطة... فصاروا يدعون موريسكيين[١]، وهو لفظ قدحي أطلقه القشتاليون عليهم بعد تنصيرهم قسرا..

(١) حسب الأستاذ محمد القاضي مؤرخ شفشاون فقد بدأ استعمال لفظ الموريسكيين سنة ١٥٠٠م إلى غاية ١٦١٤م، حيث انتقل استعماله خارج إسبانيا إلى المغرب العربي ومناطق أخرى وصلها الموريسكيون.

لاقى الموريسكيون خلال رحلاتهم صعوبات وتعذيبا من نوع آخر حيث أنهم كانوا عرضة للابتزاز من طرف أصحاب المراكب القشتاليين، لدرجة أن عددا كبيرا منهم لم يكن يصل إلى وجهته المقصودة بسبب قتلهم أو رميهم في عرض البحر من طرف الربابنة، وعلى سبيل المثال، فالذين نزلوا منطقة وهران أملا في انتقالهم للمغرب الأقصى، كان مصير أغلبهم السرقة والنهب من طرف الأعراب وقطاع الطرق لما كان معروفا من أنهم يحملون أموالا وحليا نفيسة.[1]

«كانت هجرة نبلاء غرناطة المسلمين إلى شمال إفريقيا سببا في وضع حد للتوسع البرتغالي على حساب بلاد المغرب العربي، وقد استطاع المغاربة –بمعاونة الغرناطيين المنفيين– تحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه بمفردهم. إن النصر على البرتغال في معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ إنما ترجع أسبابه الرئيسية إلى معاونة الأندلسيين الذين وقفوا إلى جانب السلطان المغربي (الدولة السعدية).

على أن ثمار الوجود الموريسكي في المغرب لم تقتصر على الجانب الجهادي، فيكفي أن نتذكر أن الأندلسيين –بالإضافة إلى تقديم المحاربين الشجعان للجيوش المغربية– كان من بينهم الوزراء ذوو الرأي، وكان منهم المستشارون والصناع المهرة والجنود والتجار، هذا إلى جانب المسائل الفقهية التي أثارها الوافدون الجدد إلى المغرب، وإلى جهود الأندلسيين أنفسهم في ترجمة العلوم الدينية. كل ذلك أسهم في أن يلمع بريق الأندلس في الشمال المغربي»

---

(١) د.محمد عبد الله عنان– دولة الإسلام في الأندلس، ص ٤٠١، العصر الرابع: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين

وكان للهجرة الأندلسية أثرها الفعال في توحيد المغرب اقتصاديا وفكريا وروحيا، إذ أخرجت الجنوب من عزلته وقوته بروابط الشمال؛ ذلك أن عددا من أولئك المهاجرين كانت لهم تجربة وطيدة بالتجارة وما تقتضيه من رحلة وتنقل من بلد لآخر. كما أن انتشار الثقافة الإسلامية على يدهم وعلى يد تلامذتهم ساهم، هو أيضا، في توحيد العقول والقلوب في جهات مختلفة ومتباعدة من البلاد.(١)

مواطن الاستقرار الجديد

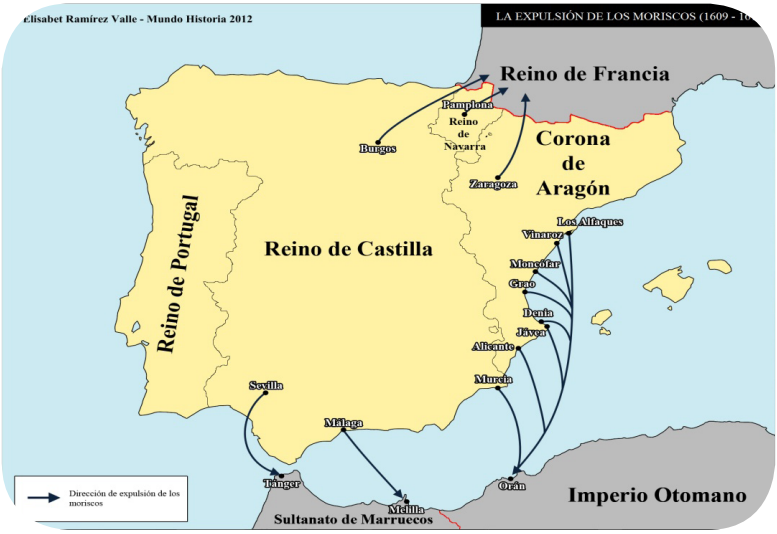

(١) محمد زنيبر دراسات في الحضارة الإسلامية وثقافة الغرب الإسلامي ص ٣٣٩

«**... يمكن تقدير عدد المغاربة، من أصل أندلسي بحوالي عشر سكان المغرب أو ٢/٥ مليون نسمة على الأقل، معظمهم نسي أصله الأندلسي، ولم يزل يتذكرها منهم سوى عشرهم، أو حوالي ٢٥٠/٠٠٠ نسمة على أقل تقدير.**»[١] ولكم أن تتخيلوا حجم التغيير الذي قد تحدثه كتلة بهذا العدد في بلد الاستقبال؛ أكثر من ثلث السكان صاروا أندلسيين بعادات وثقافة مختلفة، فيهم العالم والحداد والفلاح والطبيب والرياضي وغيرهم الكثير..

ويقدر من هاجر للمغرب وحده خلال الفترة ما بين ١٦٠٩م و١٦١٤م حوالي أربعين ألف شخص، عشرة آلاف منهم حلوا بتطوان عام ١٦١٣م وذلك حسب تقرير «**الدوكي دي ميدينا سيدونيا**».

ووفقا لما ذكره صاحب كتاب «**نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**»:

- أن أهل مالقا خرجوا إلى بادس(بالريف)
- أهل الجزيرة الخضراء خرجوا إلى طنجة
- أهل رندة وبسطة وحصن موغر وقرية كاردوس وحصن مرتيل إلى تطوان ونواحيها
- أهل ترقة إلى المهدية
- أهل مسنين إلى الريف

---

(١) د منتصر على الكتاني.انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية.ط ٢٠٠٥.ص ٣٩٥

- أهل لوشة وقرية الفخار والبعض وغرناطة ومارشينا والبشارات إلى قبيلة غمارة
- أهل بررة وبرخة وبوله واندراش إلى المنطقة الواقعة بين طنجة وتطوان، وانتقل بعضهم إلى قبيلة بني السعد (وادي لو حاليا)
- أهل ألمرية إلى أصيلة ونواحيها
- أهل بلش مالقا وشيطةوشريش إلى مدينة سلا
- أهل طريفة إلى آسفي وأزمور وأنفا.[1]
- فهذه الكتلة البشرية من الأندلسيين التي سوف تستوطن المغرب الأقصى، لاشك أنه سيكون لها تأثير على مستوى الكم بتغيير في المعادلة الديموغرافية، والنوع بتموقع عادات وأعراف ومفاهيم داخل النسيج الاجتماعي والسياسي والفكري. ولا شك أن الأنظمة المستقبلة سيكون لها مواقف من هذا الوافد الجديد إما بالاحتواء أوالإلهاء أو الاستقواء.

(١) عادل سعيد بشتاوي، كتاب الأمة الأندلسية الشهيدة- ص ٣٣٤ الطبعة الأولى ٢٠٠٠، المؤسسة العربية

الرباط وسلا

رباط الفتح، مدينة تحمل من معاني الرباطاتوالمجاهادات والفتوحات ما يجعلها قبلة لعشاق التحرر والفردوس.. بموقعها المطل على المحيط والمحاذي لنهر أبي رقراق الذي يفصلها عن مدينة سلا بأمتار... جعل منها المرابطون قلعة عصية على الخصوم واتخذ منها الموحدون رباطا يطل من علياه على النهر والبحر.. لحماية الجيوش وانطلاق الحملات الجهادية... لتصبح فيما بعد إمارة أو جمهورية موريسكية..

ما من شك في أن قدر حاضرة الرباط ارتبط منذ البداية بالأندلس والدفاع عن مسلميها، قبل أن يرتبط كليا بالموريسكيين المطرودين، بعد سقوط مملكة غرناطة. أي أنها، تاريخيا وروحيا، مدينة أندلسية بامتياز. فما بنى الخليفة عبد المومن الموحدي، بقصبة الرباط، معسكر

الجنود المتوجهين نحوالأندلس، إلا لموقعها الاستراتيجي. وما خط تصميمها ورسم حدودها ابنه، الخليفة أبو يعقوب يوسف، إلا ترسيخا لموقعها كمنطلق للجيوش المجندة للدفاع عن أرض الإسلام بالأندلس. وما أكمل الخليفة يعقوب المنصور بناءها، وشيد جامعها وصومعته الشاهقة ورفع أسوارها وأحدث أبوابها، إلا تيمنا بانتصاره على ملك النصارى ألفونسو الثامن في معركة الأرك سنة ١١٩٥م، فسماها لذلك «**رباط الفتح**» كشهادة على ارتباطها بالأندلس وبالفتوحات الإسلامية بها. بل كان ينوي نقل عاصمته إليها لوقوعها قرب العدوة الأندلسية، بعد أن امتدت دولته من طرابلس إلى سرقسطة.(١)

«**مباشرة بعد طرد المورسكيين سنشاهد وصول مجموعات من هؤلاء المطرودين إلى مصب أبي رقراق، خصوصا من بلدة هرنتشوش، ليقيموا في المكان الذي يسمى اليوم قصبة الودايا.. وجدوا هذا الحصن في حالة خراب فقاموا بترميمه...**»(٢)

وقد اتجه هؤلاء (الأندلسيون والهرناشيون) إلى القرصنة البحرية حيث كانوا يمخرون عباب البحر على طول الشواطئ الإسبانية فقد كانوا يملكون ما يزيد عن خمسين سفينة قراصنة ((vaxeles de corsoوستة آلاف أسير مسيحي... ومع هذا كله كانوا لا يعترفون

(١) د. محمد نجيب لوباريس من أوليباريس إلى لوباريس سيرة أسرة مهجرة من الأندلس، ص ٤٦

(٢) الحسين بوزنيبالمورسكيون وقصبة الرباط. ص٥٤.دار ابي رقراق للطباعة والنشر

بالسيادة لأحد، لأن تلك التي يمتلكها سلطان المغرب لم تكن سوى اسمية... وكانوا يحكمون أنفسهم في شكل جمهورية»[١]

نشأة جمهورية أبي رقراق

كان القادمون من الموريسكيين إلى البلاد الإسلامية:

- من بلنسية وهم أول من قرر في حقهم الطرد سنة 1609.
- من قشتالة، واسترامادور. وكان من القادمين إلى المغرب من هذه الناحية الأخيرة موجة **وردت من** هرناشو-Hornacho وهي مدينة صغيرة في الجنوب الشرقي لماردة.

(١) المصدر السابق ص٦٤

وكانوا يزورون العملة الإسبانية وغيرها. ولما خشوا من معاقبة محاكم مدريد، هاجروا طواعية إلى الرباط فاستقروا بها أواخر سنة 1018هـ (1609م)

- من أرغون وجنوب الأندلس سنة 1019 هـ (1610م)
- من قطلونيا سنة 1020 هـ (1611م)
- من مرسية1023هـ (1614م).

وقد استقر الهرناشيون بقصبة الأوداية، وانضموا بذلك إلى الجالية الأندلسية التي هاجرت إليها من قبل، ثم استقدموا موريسكيين آخرين من مختلف نواحي المغرب، وعمروا مدينة الرباط كما استقر عدد منهم بسلا.

وكان الهرناشيون ذوي ثروة ضخمة، ومهارة في استعمال الأسلحة النارية، مما جعل زيدان ابن المنصور، يجند منهم حوالي أربعمائة، لمحاربة أبي حسون في ناحية درعة. وبما أنه أبطأ في أداء رواتبهم، فقد فروا من الجيش عائدين إلى الرباط وسلا. وبدؤوا يباشرون القرصنة في المحيط الأطلسي بمجرد استقرارهم، ويقدمون عشر مواردهم إلى السلطان زيدان الذي اعترف لهم بهذه الطريقة، بمباشرة القرصنة، ولكن عدم مساعدتهم به عسكرياـ جعلته يلجأ إلى تسليط أبي عبد الله العياشي عليهم.

وفيما يخص طريقة الحكم بالرباط، فقد كان الأندلسيون قبل قدوم الهرناشيين يقبلون سلطة القائد الذي تعينه الدولة، دون أن تكون له سلطة حقيقية عليهم، ثم طردوا القائد، واختلف الهرناشيون سكان القصبة مع سكان سلا. وكونوا في الأخير مجلسا للحكم، نصف

أعضائه من الرباط والنصف الآخر من سلا، بعد أن كان الهرناشيون مستبدين وحدهم بالحكم. وهكذا تشكلت جمهورية حقيقية بحوض أبي رقراق، ابتداء من سنة ١٦١٤م (١٠٢٣هـ).[١]

قوة الموريسكيين البحرية

«هدف الموريسكيون وراء اختيارهم للإقامة بالرباط إلى تكوين قوة هجومية للعودة إلى بلادهم والانتقام لأنفسهم.. والغالب أن المنصور الذهبي واعدهم سرا بإعانتهم على العودة. وذلك يبدو من خلال تصرفاته الدبلوماسية والتنظيمية، فقد كان المنصور الذهبي يتوسل إلى الله أن يحقق العودة إلى الأندلس على يده كما يظهر ذلك من رسالة بعث بها في موكب (الحج) لتلقي على قبر الرسول يبث فيها آماله وطموحه، كما أنه حاول السيطرة على مالي والسنغال لقطع الطريق على البرتغال حتى لا يحتلوا هذه البلاد ويحاصروا المغرب من جنوبه و(ثالثا) لأنه أبرم أتفاقية مع إنجلترا للتضييق على المملكة الإسبانية.

أما من جانب الموريسكيين فقد انضموا إلى جيشه في غزوالجنوب سعيا وراء اكتساب أموال تساعدهم على تنظيم شؤونهم المادية وتقوية مركزهم العسكري، كما أنهم نظموا أمور جهاد البحر حتى يستطيعوا مهاجمة (إسبانيا) فبنوا في الرباط دارا لصناعة السفن، وأنشؤوا مدرسة ملاحية للدراسة البحرية وصناعة السفن وإصلاحها ومعرفة طرق البحر ليلا بواسطة حركة النجوم، وقد كان منهم أساتذة نبهاء مارسوا المهنة وأبدوا كفاءة ومقدرة. وفعلا، سيطر الموريسكيون على البحر الأطلسي

---

(١) جمهورية أبي رقراق.مجلة دعوة الحق عدد ٧٥

والمتوسط ونسقوا عملهم مع مراكز الجزائر، وليبيا، وهم جميعا من الموريسكييناالمتوافدين على هذه المنطقة.

وقد كانت الدولة المغربية تعتمد على خبرتهم في شؤون البحر، والتقنية المدفعية، كما كانت تعتمد عليهم في السفارات الدبلوماسية لمعرفتهم باللغات الأجنبية كالانجليزية والإسبانية والايطالية، والفرنسية حيث كان أغلب السفراء منهم كالسفير ابن عبد الله ابن عائشة، سفير المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر، وكالسفير التهامي المدور في بلاد السويد والمستيري في إنجلترا وغيرهم كثير. كما كان منهم «**أمراء البحر**» كالبعودي وبربيس والمستيري والعربي حكم والعنفيولوباريس وغيرهم...

لم تكن لدى مورسكيي أبي رقراق أول الأمر أكثر من أربع بواخر سنة ١٦١٧ م (١٠٢٦هـ) ثم أصبحت في سنة١٠٣٦ هـ (١٦٢٦م) تبلغ الستين «[١]

(١) صلة الجالية الأندلسية في المغرب-٢ - دعوة الحق. العدد ٢٠٦

شفشاون

لشفشاون علاقة وطيدة بالأندلس والأندلسيين، تأسست قبل سقوط غرناطة بـ ٢١ سنة وكأنها كانت تعلم بقدوم هؤلاء. وكان لاستقرارهم بها الأثر الكبير في تطورها وامتداد بنيانها، فقد عرفت ثلاث هجرات أندلسية[١]:

- **الأولى:** سنة 888 هـ / 1483 م، فأفاضت إلى المدينة حومة (حي) الخرازين وحومة الصبانين (مازالا يحتفظان بطابعهما الأندلسي)
- **الثانية:** سنة 898هـ/1493م، حيث حلت بها مجموعة من الأسر الأندلسية وكانت السبب في إنشاء حومة ريف الأندلس، حيث كانت تغطي حوالي ثلث سكان المدينة. (مازالت معظمها تحتفظ بطابعها الأندلسي، شكل الأقواس والأزقة الضيقة الملتوية والمنازل بأبوابها الكبيرة والقصيرة والنوافذ ذات الشبابيك الحديدية وبئر المياه في فناء المنزل والأشكال الهندسية الغرناطية داخل الغرف الكبيرة، ذات السقف المزخرف خشبه بألوان زاهية)
- **الثالثة:** كانت سنة 907هـ / 1502 م والتي نتج عنها إنشاء حومة جديدة بالمدينة وهي حومة العنصر المؤدية إلى منبع الماء المعروف «**برأس الماء**» خارج سور المدينة.

---

(١) ذ. محمد القاضي/ذ. أحمد أشرنان ـ شفشاون تاريخ، حضارة، أصالة –ص ٢٥

ولم تقتصر هجرة الأندلسيين (مسلمون ويهود) على المدينة فقط، بل كان هناك من فضل الإقامة والاستقرار في قرى ومداشر القبائل الخمسية والغمارية المحيطة بمدينة شفشاون، وقد قدموا إليها من إشبيلية وغرناطة ومالقةومرسية وقرطبة وجيان وشاطبة وغيرها، حاملين عاداتهم وتقاليدهم، وحسب بعض الشهادات، فإن ارتداء المرأة الشفشاونية في بعض المناسبات للبلغة ذات اللون الأسود يعبر عن علامة الحزن لفقدان غرناطة، وقد حافظت تلك الجماعات على أسمائها وألقابها الأندلسية حتى اليوم، ومنهم من احتفظ بمفاتيح منازلهم التي حملها أجدادهم على سبيل الذكرى.

لقد توارثت عدد من الأسر الأندلسية العلوم وعرفت كل عائلة بنوع من المعارف، نذكر منها على سبيل المثال:[1]

- أسرة المفرج: توارثت الطب والصيدلة
- أسرة البيطار: توارثت في البيطرة
- أسرة العاقل: توارثت في البناء

وهناك عدد من الأسر الأخرى التي توارثت في الموسيقى الأندلسية بالمدينة.

(١) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ص ٣٨٠

القصر الكبير

«تقع مدينة القصر الكبير وسط حوض لوكوس الغني بالمآثر التاريخية لكونه من المناطق الأولى التي استوطنها الفنيقيونوالقرطاجيون والرومان، إضافة إلى وجود رسوم من العصر الحجري الحديث. ولا تزال الأبحاث الجارية تبرز كل مرة ما يزخر به هذا الحوض من لقى أثرية مثل ما وجد في عزيب السلاوي قرب القصر الكبير.

والقصر الكبير من الحواضر الأولى في المغرب التي لازالت قائمة. أطلق عليه الرومان اسم OppidumNovum أي القلعة الجديدة وتأكدت رومانيتهبالنقائش والأحجار الرومانية التي اكتشفها

في المسجد الأعظم محمد أخريف أثناء إصلاحه من طرف المجلس البلدي في الفترة الممتدة بين ١٩٨٦ ـ ١٩٩٢.»[١]

في موضوع الهجرة الأندلسية إلى القصر الكبير، يقول الأستاذ محمد بوخلفة: «**أما الأندلسيون فقد حلوا بالمدينة لأول مرة آخر عصر الأدارسة، عندما خربت البصرة وكانت فيها حامة أندلسية بقيادة يحيى بن علي الأندلسي الذي كان يحكمها باسم الأمويين، وقد انتقل سكانها للقصر وضمنهم الأندلسيون، ثم وفدت عليها وفود أخرى منهم وبالأخص منها ما ورد زمن الموحدين وعلى رأسهم الشيخ أبو الحسن علي بن غالب ومن صاحبه من الرفاق المشهورين بعرفانهم وثقافتهم، ولا شك أن وفودا أخرى وفدت على المدينة ضمن ما ورد على المغرب زمن الوطاسيين عند خروج المسلمين نهائيا من الأندلس سنة ١٤٩٢م والسنوات التي سبقتها زمن الفتنة والاضطراب هناك**»[٢]

ومن جانب آخر، وجدنا في المصادر التاريخية ما يشهد على أن المراكب الأندلسية كانت تصل إلى وادي القصر الكبير عبر مرسى العرائش ووادي اللكوس، من ذلك أن ابن حوقل يصف «**بحيرة آرْيغ**» فيقول: «وبحيرة أصلها من البحر المحيط، صغيرة، ترسى فيها المراكب الأندلسية التي تحمل غلات الناحية، وفيها يركب أهل

---

(١) محمد أخريف ـ محمد العربي العسري.القصر الكبير: صور تحكي.ص ١٥.

(٢) الأندلسيون في القصر الكبير، نقلا عن «**الطريق إلى معرفة القصر الكبير**» ص ١٠

البصرة ويشحنون من نواحيهم وناحية بلد بياثه، ومنها عن مرحلة إلى جهة الجنوب مصب وادي سُبُه وهو وادي فاس «[1]

ومن الشخصيات التي بصمت الحياة الاجتماعية بهذه المدينة «**سيدي الرايس**»، فقد «**أذن سلطان المغرب يعقوب بن عبد الحق المريني للرئيس عبد الله ابن شقيلولة**»سيدي الرايس» بتكوين «**إمارة أندلسية**» بالقصر الكبير، وتذكر المصادر أن عبد الله كان أميرا على مدينة وادي آش قادس «**Cadiz**» الحالية، وبينه وبين خاله الغالب بالله أمير غرناطة صراع على أشده من أجل السيطرة على المنطقة.

في إطار هذا الصراع ثار «**سيدي الرايس**» على خاله معلنا ولاءه لسلطان المغرب أبي يوسف بن عبد الحق المريني، ومن أجل وضع حد لهذا الخلاف طلب ملك المغرب من سيدي الرايس التخلي عن منطقة وادي آش لخاله معوضا إياه بتأميره على قصر كتامة بالمغرب.

وهكذا بدأ حكم بن اشقيلولة للقصر الكبير في شبه إمارة استمرت ٧٠ سنة ابتداء من ١٢٨٨م، واستمر حكم سيدي الرايس للمدينة ثمانية أعوام كان خلالها كثيرا ما يذهب لعدوة الأندلس للجهاد. ولعل التأثير الأندلسي الكبير في المدينة في العادات والتقاليد يعود إلى فترة حكم بني اشقيلولة للمدينة.

---

(١) د. رشيد العفاقي، الأندلسيون في القصر الكبير، نقلا عن ابن حوقل، صورة الأرض ص ٨٢

ويحظى سيدي الريس بتقدير كبير عند الساكنة، فالبطولة التي أبداها في جهاده ضد العدو بالأندلس وذهابه وعودته إلى القصر سالما منتصرا، جعلت الذاكرة الشعبية تنسج حول شخصه حكايات وأقوالا.[1]

(١) محمد أخريف- محمد العربي العسري.القصر الكبير: صور تحكي.. معالم ووجوه واحداث. ص ١٥٠. جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير.

من علمائها الأندلسيين

أبوالحسن علي بن خلف بن غالب الشلبي الأنصاري (٤٨٤هـ / ١٠٩١م – ٥٦٨/ ١١٧٣م)

من أقطاب العلم الذين اشتهرت بهم مدينة القصر الكبير» الفقيه والصوفي والشاعر وعالم الرياضيات، الأندلسي القصري، أبوالحسن علي بن خلف بن غالب الشلبي الأنصاري (٤٨٤هـ / ١٠٩١م – ٥٦٨/ ١١٧٣م). دفين القصر الكبير. ولد في مدينة شلب Silves بالأندلس (بالبرتغال حاليا)، وبعد دراسته ببلده ذهب إلى قرطبة «ودرس على عدة علماء وشيوخ وأقطاب للصوفية، وبرز في علم الفقه والحديث، وكان شاعرا وعالما في الرياضيات، وأصبح شيخ الصوفية في وقته حيث لقب بالعارف. من شيوخه ابن العريف وعبد الرحمن اللخمي، عرف بابن برجال ويعرف أيضا بغزالي الأندلس، قدم إلى المغرب ونزل في البداية بفاس، وبدأ يدرس بها الحديث والتفسير والفقه، وأصبح من كبار علمائها ومفتيها وذاع صيته في الآفاق، ومن تلامذته هناك أبو مدين الغوث الذي أخذ عنه مولاي عبد السلام

بن مشيش، انتقل سيدي بوغالب إلى القصر الكبير لما كانت تعرفه المدينة من نهضة علمية خلال العصر الموحدي من جراء هجرة الكثير من الأندلسيين إليها. أسس مدرسة بقصر كتامة بالجامع الأعظم حيث كان يدرس بها مختلف العلوم الدينية وبالخصوص الحديث والفقه والتصوف وعلم القوم، من تلاميذه الشيخ عبد الجليل بن موسى القصري صاحب كتاب شعب الإيمان.[١]

أبو محمد عبد الجليل

يعتبرالعلامة عبد الجليل القصري من أبرز العلماء والمتصوفة والفقهاء المغاربة، ومن العلماء العاملين ومن الأئمة المتقين الذين برزوا في العصر الموحدي، ويعد من أشهرالمهتمين بالفقه والحديث والتفسير، وأصبح اسمه من ألمع الأسماء في الشرق والغرب.

وهو أبو محمد عبد الجليل بن موسى الأوسي الأنصاري الأندلسي القصري، من أهل حصن فرنجولش من أحواز قرطبة، (فأسرته هي من الأسر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب وحلت بمدينة القصر الكبير خلال القرن الخامس الهجري) [٢]

»السيدة فاطمة بنت عبد الرحيم الأندلسية«

وكذلك كان للمرأة دور هام في الحياة الثقافية بهذا الصرح الأندلسي فنجد مثلا «**السيدة فاطمة بنت عبد الرحيم الأندلسية**» التي

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٩

(٢) محمد بن عبد الرحمان بن خليفة. كتاب القصر الكبير أعلام أدبية علمية تاريخية. طبعة ١٩٩٤. الصفحة ١٨. (

كانت معاصرة لأبي غالب، وذكر أنها كانت من الصالحات العارفات، أخذت عن الشيخ الصالح أبي عبد الله التودي دفين باب الجيسة بفاس، وتوفيت السيدة المذكورة بالقصر الكبير ودفنت بباب الواد، وعليها قبة ذات نقوش فنية سائرة نحوالتلاشي.

ومما هو شائع في الذاكرة القصرية أن هذه العالمة الصوفية كانت تدرس بالجامع الذي اندثر ولم يبق منه اليوم إلا صومعته المعروفة عند الساكنة بصومعة البنات. ويظهر أن الجامع الذي كانت تدرس به يوجد قريبا من ضريحها الحالي، سماه بلير جامع الحنصالي. ويقول أيضا في ص: ١٦٠ إنه كانت بين ضريح للا فاطمة الأندلسية والجامع الكبير جامع آخر ربما كانت به مدرسة واندثر الكل ولم تبق إلا الصومعة وهي جامع الرضى.[١]

(١) المصدر السابق ص ١٤٢ـ١٤٣

مراكش

تقع مراكش في جنوب الوسط بالمغرب، وتعرف بالمدينة الحمراء أو مدينة النخيل، يبعد عنها نهر أوريكا ٣٠كم جنوب المدينة، ويمكن مشاهدة قمم جبل ياغور المتدثر بالثلوج من غربها. أسست على يد يوسف بن تاشفين لتكون عاصمة لدولة المرابطين والمركز السياسي للغرب الإسلامي.

أخذ التأثير الأندلسي في المغرب حجما أكبر عما كان عليه في السابق عن طريق مراكش، فقد كان من قبل؛ محدودا ومقتصرا على بعض المبادرات الفردية وبعض الهجرات الصغيرة، وهذا بخلاف ما حدث في عهد دولتي المرابطين والموحدين، إذ نجد الحضور الأندلسي ينتقل من الهوامش والزوايا لينزل في الصدارة، ويدخل في تنظيم الدولة ذاتها وفي بنيانها بصورة مدبرة، لأن الدولة أصبحت تجمع بين قطرين هما المغرب والأندلس وكان من حسن سياسة المرابطين والموحدين أن فسحوا المجال للأندلسيين حتى يكون لهم ممثلوهم في البلاط ولأروقة المخزن، وحتى تكون لهم مساهمة لامعة وملحوظة في تسيير الشؤون العمومية. وارتباط الأندلس بالمغرب سياسيا فتح الباب على مصراعيه لتوافد الأندلسيين بكثرة على المغرب، خصوصا بعد أن اشتدت الحملة المسيحية عليهم.[١]

إن أول جالية أندلسية مهمة استقرت بمراكش في العهد السعدي هي الجالية التي أمر السلطان عبد الله الغالب باستقرارها في حي رياض الزيتون، وقد استمر بعد ذلك توافد المورسكيين على المدينة، خاصة

---

(١) محمد زنيبر، دراسات في الحضارة الإسلامية وثقافة الغرب الإسلامي، ص ٣٣٩ (بتصرف)

بعد صدور قرار طردهم من إسبانيا، إلى أن أصبحت معها اللغة الإسبانية بمراكش تداني اللغة العربية في انتشارها.

ونُشير إلى وجود عدد كبير من الإسبان الذين دخلوا الإسلام حديثا، والدور الذي أصبحوا يلعبونه في الحياة السياسية بالمدينة، إذ لا ننسى مثلا الدور الذي قام به هؤلاء في فتح السودان أيام السلطان أحمد المنصور الذهبي، كما لا ننسى أيضا وجود عدد كبير من الأسرى الإسبان بالمدينة، والدور الذي كانوا يلعبونه في الحياة العامة بها.[1]

وقد ظل الوجود الأندلسي بالمدينة بارزا ويمكن تسجيله بسهولة، فأثناء وصف م. الناصري لحفلة صلاة عيد ترأسها السلطان مولاي سليمان بمراكش يقول: «**...هم جاء أهل الأندلس القاطنين (كذا) الحمراء وبين أيديهم لواء أخضر، وامتازوا به عن غيرهم، وجعلوا يخرجون البارود...**».

وفي عهد المرابطين أيضا، وبفضل التأثير الذي نشأ عن تأسيس مراكش وإقبالها على التتلمذ على الأندلس، عرفت الثقافة المغربية الناشئة قفزة نوعية تجلت في تكاثر العلماء والأساتذة من كل الأصناف، وفي سائر العلوم والفنون المعروفة آنذاك، وتجلت في اتساع البحث والتأليف، وتعززت بالنمو الكبير الذي عرفته الحركة الصوفية ذات الأهمية البالغة، إذ تمثل بعدا أساسيا من أبعاد الفكر المغربي وترتب

(١) الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب رزوق

عن هذا النمو الثقافي أن أصبحت مراكش أحد المراكز الأساسية للثقافة المغربية.[1]

ومن علمائها الأندلسيين البارزين نجد:

- أحمد بن قاسم ابن معيوب الأندلسي (ت ١٠٢٢هـ ـ ١٦١٣ م): برع في الحساب والهندسة والتنجيم، واشتغل بتدريسها للطلبة.
- علي بن إبراهيم الأندلسي (ت حوالي ١٠٦٥ هـ ـ ١٦٥٥م): مهر في ميدان الطب وعلمه لطلبته، ونظم الأزاجير في طرق التغذية النافعة وعلاج بعض الأمراض.
- أحمد بن قاسم الحجري (ت بعد ١٠٥١ هـ ـ ١٦٤١م): استقر بمراكش منذ أواخر عهد المنصور ١٥٩٩، إذ يقول في هذا الصدد: «... ورأينا العافية والرخاء في تلك البلاد، إلى أن مات مولاي أحمد رحمه الله «، واشتغل بالترجمة لدى السلطان زيدان وبنيه عبد الملك والوليد، كما ربط علاقات حميمة مع علماء العاصمة، منهم على الخصوص أحمد بابا السوداني، إذ كان من المودعين له الحين خروجه من مراكش، ومع عيسى بن عبد الرحمان السكتاني.

---

(١) محمد زنيبر، دراسات في الحضارة الإسلامية وثقافة الغرب الإسلامي، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠

و «عمد الموحدون إلى استقدام الصناع من سائر أقاليم البلاد لاسيما الأندلس...كما هوالحال بالنسبة إلى المهندس الشهير الحاج يعيش المالقي المعروف بالأحوص الذي صمم مقصورة جامع مراكش الشهيرة.[1] التي بلغت من دقة الصنع والحركة ما جعلها تخطف إعجاب كل من شاهدها، فقد كانت تتسع لأكثر من ألف شخص وكانت تتحرك بواسطة لوالب غير مرئية مثبتة في أسفلها ولها ستة جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة، وتدور هذه المفاصل في سكون تام ولا يترتب على حركتها أقل صوت، وتبدأ المقصورة بالحركة تلقائيا عندما تمس قدم الخليفة الأزرار الموضوعة في المدخر الخاص بالمقصورة عند ذلك تتحرك جدرانها ويخرج من الجانب الثاني لها المنبر الذي

(١) الحلل الموشية، ص ١٤٥

جعل فيها مستترا، وهذا المنبر لا يقل شأنا عن المقصورة في دقة الصنع والإتقان بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب ويغلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مجلسه.[١]

(١) د مشتاث كاظم المياح. مراكش خلال عصر الموحدين دراسة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، دار صفحات ط ٢٠١٤ ص ٧٦

فاس

فاس...أي سر تخبئه هذه المدينة بين جنبيها ؟...لم حضنها الدافئ عانق ذلك الغريب سليل النبوة ادريس الأول؟ لماذا اختارت فاطمة الفهرية تربتها الخصبة لتبذر بها ميراث النبوة وقفا إلى قيام الساعة؟ فكانت مقصدا للمريدين وينبوعا للحياة لمن عشق العلم والحكمة...

حتى أنها ظلت إلى عهد قريب منارة للمغرب... بل كان لا يُعرف إلا باسمها...

تحظى فاس بموقع استراتيجي مهم باعتبارها ملتقى للطرق التجارية بين الشرق والغرب خاصة تلك التي كانت تربط سجلماسة بشمال المغرب. كما شكلت ساكنة المدينة خليطا من أمازيغ الأطلس المتوسط والقيروانيين والأندلسيين واليهود الذين ساهموا في تطورها العمراني والاقتصادي والثقافي.

«**شيدت فاس في واد قد التفت أشجاره، وانسابت أنهاره، وتفجرت عيونه، بين جبلين صغيرين: «زالغ»** و»اللويزات»، أو هضبتين شامختين: «**قبيبات بني مرين**» و»المصلى»، قد كستهما من السفح إلى القمة الحدائق ذات البهجة، أردية خضرا من اللوز والجوز والصفصاف، وملتف الشجر من الأعناب والكروم معروشات وغير معروشات، وقد تصاعدت القصور والدور على جنبات الوادي وأطراف الهضبتين، بمن فيها من الحور العين مقصورات وغير مقصورات، تلعب في عرصاتها الفيح، وتلهو بين قبابها ذات الفضاء الواسع عن الكون وما يجري فيه من قتل وقتال على الجاه والمال، والأديان والأوطان بين مدافعين ومهاجمين حماة ومعتدين، والمآذن ناطحات السحاب تشرف على المدينة مذكرة أهلها حينا بعد حين، بمن يعلوها صارخا في القوم بنداء الخلود: الله أكبر الله أكبر..

وفاس قد تقمصت المحاسن بأنواعها الثلاثة: الخضرة، والمياه، والوجوه الحسان.[١]

«**..أسسها مولاي إدريس الأول من بلدتين، إحداهما لإيواء المهاجرين القرطبيين، من حي الربض الذي ثار على الخليفة الأموي، والثانية لإيواء مهاجري القيروان. وكانت المدينة الأولى تسمى بـ** «الأندلس» والثانية بـ «القرويين»، وهما يحملان هذا الاسم إلى اليوم، وفي كل حي من الحيين مسجده الأعظم المسمى به.

وظلت فاس تستقطب نخبة المهاجرين الأندلسيين، قبل سقوط غرناطة وبعدها، مباشرة أوعن طريق مدن أخرى، وكان من أبرزهم السلطان ابن الأحمر الذي بنى بفاس قصورا على طريق بنيان الأندلس[٢].

أصبحت للعائلات الأندلسية الفاسية الدورالهام والرائد في المجالات العلمية والمالية والسياسية والثقافية والحرفية. وتوجد اليوم بفاس مئات العائلات الأندلسية، منها من حافظ على اسمه العجمي، ومنها من تغير اسمه، ومنها من نسب إلى مدن الأندلس وقراه[٣]

---

(١) عبد الكبير بن هاشم الكتاني. تحقيق د.علي بن منتصر الكتاني ـ زهر الآس في بيوتات أهل فاس ـ ج١ ص ٥

(٢) أحمد بن خالد الناصري ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. ج٤ ص ١٣٥

(٣) د منتصر على الكتاني ـ انبعاث الإسلام في الأندلس،.دار الكتب العلمية.ط ٢٠٠٥.ص ٣٨٩

كما أنهم قدموا بمنهج علمي، أثروا به في المحيط الفاسي، خاصة مدرسة الإمام محمد بن يوسف العبدري؛ الشهير بالمواق، حتى صار علماء القرويين يقولون: نحن مالكيو المذهب، مواقيو الفهم، كما أن القضاء والفتيا بنيت على مصنفات أبي عبد الله محمد بن محمد ابن جزي الكلبي، وأبي بكر محمد بن عاصم الغرناطي، وعلي بن قاسم الزقاق التجيبي... وكذا كان لمدرسة ابن حزم الظاهري تأثير في المغرب عند ورودهم أولا، ثم في القرن الرابع عشر/ العشرين ثانيا.. ويكفي أن مدار أهل فاس، بل أهل المغرب والمالكية عموما على منظومة الفقيه المجاهد: عبد الواحد بن أحمد ابن عاشر الأنصاري الأندلسي المتوفى رحمه الله سنة ١٠٤٠ هـ/ أواسط ق١٧م... [١]

وقد «**استأثرت فئة من هذه الجالية -الأندلسية- بالجاه والثروة والعلم، مفتخرة معتزة بأصلها الأندلسي الذي يؤدي بها إلى شرف نسبها**»[٢] و»مثلما حاولت أن تفرض نفسها كقوة اجتماعية بالمدينة حاولت أن تفرض نفسها أيضا كقوة سياسية لها وزنها بالمدينة، إذ شاركت في العديد من الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة... فأصبحت تقتسم النفوذ مع اللمطيين»[٣]

---

(١) د. حمزة بن علي الكتاني أندلسيو مدينة فاس – موقع رابطة العلماء السوريين

(٢) محمد بن أحمد بن محمد ميارة، نصيحة المغترب وكفاية المضطرب، تحقيق ذ. محمد الغرايبوذ. مصطفى بنعلة، ص ٩٢

(٣) د.محمدرزوق.الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب.افريقيا الشرق.ص٣٦٤-٣٦٥

ثم إن الأندلسيين قد تقلدوا وظائف مخزنية مهمة في أزمان المرينيين، والوطاسيين، والسعديين والعلويين، حتى إن أسرا توارثت تلك المناصب وبعضها إلى الآن، وقد تمثلت تلك الوظائف في مختلف التخصصات: كالوزارة، والصدارة، والحجابة، والسفارة، والكتابة... إلخ. ومن السفراء الأندلسيين الشهيرين الذين كان لهم أثر معروف في الدبلوماسية المغربية: الوزير الكاتب، والسفير محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي ق١٢هـ/ ١٧م، صاحب كتاب «**رحلة الوزير في افتكاك الأسير**»، والسفير يحيى الغزال الأندلسي؛ صاحب كتاب «**نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**»، ق١٢هـ/ ١٨م، والسفير عبد الله بن عبد السلام الفاسي الفهري ق١٤هـ/ ٢٠م.

ومن الأسر التي تناوبت على العمالة في فاس: بيت الغرناطي، وهم ينتسبون لذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب السلماني، فقد توارث هذا البيت منصب العمالة بمدينة فاس، خاصة في زمن السلطان مولاي إسماعيل وبنيه، ومن الشهيرين به: السيد علي الغرناطي. كما توارثت مناصب الوزارة والكتابة أسرة ابن سليمان الأندلسي، وذلك منذ نحو ثلاثمائة عام إلى الآن، ومن الشهيرين: وزير الخارجية المغربي قبل الحماية: الحاج عبد الكريم ابن سليمان، ورئيس مجلس العرش الحاج الفاطمي ابن سليمان.

مكناس

تقع مكناس شمال شرق المملكة المغربية على بعد ١٤٠ كلم شرق العاصمة الرباط، وهي قريبة من مدينة فاس.

عرفت مكناس أيضا استقرار من أفراد الجالية الأندلسية بها، فقد لاحظ لويس شيني ـ مثلاـ في القرن الثامن عشر أن القصور

التي شاهدها بمكناس ما هي إلا تقليد للمعمار الأندلسي. وقد برز في الميدان العلمي عدة عائلات أندلسية بالمدينة، نذكر من بينها على الخصوص:

ـ عائلة الوقاد: هاجرت من اشبيلية بعد سقوطها في أيدي الإسبان في منتصف القرن السابع الهجري (١٣ الميلادي)، واستقرت بفاس أولا، ثم انتقل بعض أفرادها إلى مكناس، من بينهم علي بن عمر الوقاد، من أقران الإمام ابن غازي، فكان موقت الجامع الكبير، وتولى ابنه عبد الرحمان (ت بعد ٨٣٤ هـ/١٥٢٨م) التدريس به، وقد اشتهر بالتضلع في النوازل وأحكام القضاء، وشارك في المناظرة الكبرى حول مشكل البلديين، وناصر أحقية الإسلاميين في العمل بالأسواق وغيرها كسائر المسلمين.

وسيستمر العلم في هذه الأسرة الأندلسية طوال عهد السعديين، نذكر من بينهم على الخصوص علي بن قاسم الوقاد قاضيا بمكناس عام ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣م.

ـ عائلة البجيري: اشتهرت هذه الأسرة بالعلم كذلك خاصة في العهد العلوي، ونذكر من بين علمائها: عبد السلام البجيري: «**أديب، خطيب بليغ، مدرس، تولى القضاءعلى عهد السلطان مولاي عبد الله**».

ـ عائلة غريط: نذكر من بين أفرادها: محمد بن الهادي غريط طبيب السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، ومحمد بن محمد غريط: استُوزرَ في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

تطوان

تقع تطوان أو ـ تطاوين ـ في منطقة الريف الكبير وفي منطقة فلاحية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بين مرتفعات جبل درسة وسلسلة جبال الريف. تعرف هذه المدينة بـ « **بنت غرناطة**» نظرا لانصهار العنصر الأندلسي فيها وتواجد آثاره الملموسة إلى وقتنا الحالي..

«كلمة تطوان محرفة عن (تِطَّاوِن) -بكسرالتاء وتشديد الطاء وكسر الواو- وهي كلمة بربرية معناها العيون، ولايزال جزء من تطوان إلى الآن يسمى بالعيون. ولم يكن لها شأن يذكر قبل هجرة أهل الأندلس إليها في أواخر القرن التاسع الهجري حين استولى النصارى على ما بقي من الأندلس وأجبروا المسلمين على التنصر أو الهجرة. ولما جاء الأندلسيون إلى تطوان - وكان عندهم من الحضارة والمدنية ما لم يكن عند المغاربة- أسسوا مدينة تطوان على النحو الأندلسي واستنبطوا المياه وجلبوها من الجبال المجاورة إلى المدينة وغرسوا فيها الجنات الجميلة.»[1]

هاجرتالعديد من العائلات الأندلسية إليها من إسبانيا بعد تغلب الإفرنج عليها من سنة ٨٨٩ إلى سنة ١٠١٨هـ، أي (سنة ١٤٨٤- ١٦٠٩ م) الخ...»[2]

و»مما لا شك فيه أن الهجرة المعروفة والأكثر أهمية من الأندلس إلى مدينة تطوان، هي تلك التي حدثت سنوات قليلة قبل سقوط مملكة غرناطة، آخر معقل للإسلام بشبه الجزيرة الإيبيرية بيد المسيحيين نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي حينما هاجر أبوالحسن علي المنظري نحو هذه المدينة التي كانت آنئذ مدينة مخربة ومهجورة خلال قرن تقريبا. وقد هاجر بصحبته عدد من العائلات الغرناطية التي تولت

---

(١) محمد تقي الدين الهلالي الحسيني المغربي» الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».ص ٨١

(٢) محمد داود.عائلات تطوان. ج١.ص٣٠. منشورات جمعية تطاونأسمير. طبعة ٢٠١٦/١

إعادة بناء تطوان حوالي سنة ٨٨٩ هـ/ ١٤٨٤ م، واستقرت بها بعيالها وتقاليدها وعاداتها، مجسدة بذلك الحياة الجديدة للأندلسيين المغاربة في هذه المدينة التي أضحت تعرف منذ تلك الفترة بـ»غرناطة الصغيرة» وبـ»أخت غرناطة»، نظرا لطابع الحياة الذي كان يحياه سكانها الجدد، والمطبوع بروح غرناطية.(١)

و»قد وقع الاتفاق على أن رئيس الأندلسيين الذين بنوا تطوان هو القائد المجاهد أبوالحسن علي المنظري الغرناطي، أحد قواد بني الأحمر وأنه هوالذي أشرف على بنائها وتولي الحكم فيها وبقي قائما بالجهاد إلى أن توفي بها، ودفن خارج باب المقابر منها ولا زال قبره مشهورا إلى اليوم.»(٢)

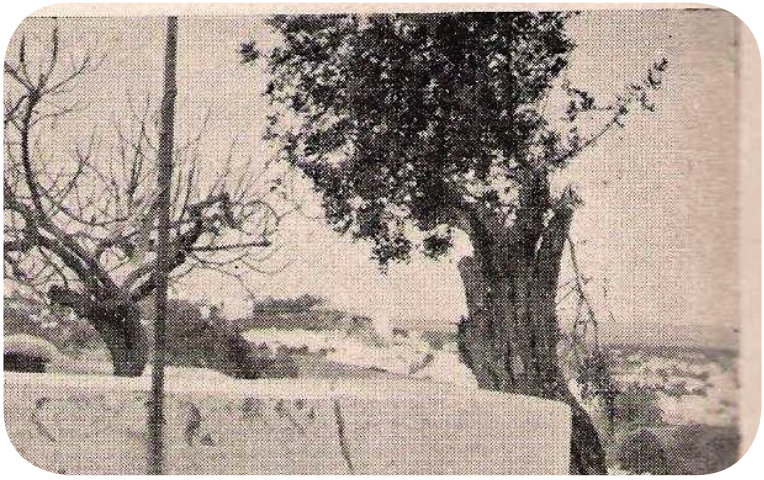

(١) د.سلوىالزاهري ـ البيوتات الأندلسية ـ المورسكيةبتطوان:الجذور والامتدادات، موقع tetouan٢٤ ٠٦ـ١١ـ٢٠١٣

(٢) محمد داود.مختصر تاريخ تطوان. طبعة ١٩٥٤

وبعد استقرار الأندلسيين الأوائل، تواصلت عمليات الهجرة سرا وعلانية إلى المدينة التي كانت تشبه إلى حدّ كبير البيئة الأندلسية، فقد ارتبط وصول الهجرات الأندلسية إلى تطوان ارتباطا مباشراً بسقوط غرناطة في أيدي الملكيْن الكاثوليكيين، ولقد ساهم الموقع الاستراتيجي لمدينة تطوان في استقطاب نسبة مهمة من المطرودين، لقرْبها من الضفة الجنوبية للمتوسط. كما أن الاستقبال الحار الذي خصّه المهاجرون الأوائل للقادمين الجُدد كان يغري بالاستقرار في مدينة كانت تزدهر ازدهاراً يوازي سرعة تكاثر سكانها، ولم تشكل هذه الهجرات ظاهرة منفردة أو خاصة، بل إنها كانت تشكل جزءا من هجرات المورسكيين من غرناطة إلى البلدان الأخرى المتوسطية، المسيحية منها والمسلمة بصفة خاصة.[١]

وقد لاحظ المؤرخ محمد داود بأن نوعية المهاجرين من الأندلس «**كان منهم رجال من أهل العلم والأدب، إلا أن هجرتهم لم تكن إلى تطوان التي كانت معرضة للحرب والطعان، بل إلى فاس وتلمسان وغيرها من الحواضر العامرة المشهورة بالعلوم والآداب، أما هذه المدينة فيظهر أنه نظرا لوقوعها في حدود الرباط والدفاع وقربها من ميدان الجهاد والقتال، كان المهاجرون إليها من رجال الحرب مع من انضم إليهم من الصناع والمزارعين**»[٢]

---

(١) امحمد بن عبود، ج.ل. ميج، نادية الرزيني، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة ألطوبريس، طنجة، ٢٠٠٢

(٢) محمد داود.تاريختطوان.المجلد ٠١.ص ١٦٨

لكن رغم هذا فهو يشهد لهم بمميزات كان لها الأثر البالغ على الحياة الاجتماعية «**...وإذا ذكرنا أن جل الوافدين عليها من الأندلس كانوا من غرناطة...عرفنا مبلغ سكان تطوان من الرقي وأساليب الحياة ومظاهرها من سكن وملبس، ومطعم ومشرب، ومتجر ومصنع، فلقد كانت للحياة الاجتماعية بتطوان طابع خاص امتاز بالرقة واللطف وحسن الذوق في الترتيب والتنميق، والمرونة في حل المشاكل والأزمات والتوفيق بين الواجب والواقع...**»[1]

ويؤكد هذا التأثير ما أورده عبد العزيز بن عبد الله «**والواقع أن المنظري هوالذي أشرف على بناء تطاون، وكان من بين الغرناطيين المهاجرين إلى المنطقة أسر ماجدة من الأرستقراطية الأندلسية التي نقلت معها عاداتها وأعرافها وعلومها وتجاربها الفنية والاقتصادية والاجتماعية. فأصبحت تطاون بذلك طليعة حواضر المغرب التي احتضنت تراث الأندلس...**»[2]

واليوم «**إن أول ما يلفت النظر هوأن التطوانيين احتفظوا في منازلهم بتلك العادات والتقاليد التي ورثوها عن أجدادهم العرب القادمين من غرناطة، أولئك الأجداد الذين بنوا وشيدوا القصور والمساجد التي، إلى يومنا هذا تبهر المبدعين والأذكياء، لا من حيث**

---

(١) المصدر السابق.١.ص ٤٣١

(٢) عبد العزيز بن عبد الله.تطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعها.منشورات جمعية تطاون أسمير ٢٠٠٦.ص ٠٤

شكل الرسول فقط بل من ناحية الدقة والإتقان في الإنجاز. إنها قصور تطوان التي تذكرنا بالإتقان الذي يميز قصر الحمراء»[١].

«ومنازل تطوان تذكر بمنازل الأندلس، تصميمها وترتيبها متشابه تماما. إن وسط المبنى تحتله الباحة. ومن هناك تتوالد الغرف. وفي وسط الباحة حنفية تحيط بها أماكن للجلوس، مفصولة أحيانا بستائر لتتحول إلى غرفة نوم أيام الصيف. وفي الطابق العلوي، هناك أربع ممرات مكشوفة، تطل على الباحة. وتكمن فخامة بعض الدور في النقش الذي يزين الباب والنوافذ الداخلية والسقف، وكل ذلك بخشب عليه نقوش بألوان متعددة، وكذلك تزين الدور بالزليج الذي يكسو البلاط، والسلم والجدران. كل شيء نابع من الحضارة القديمة التي لم تتغير. فكأن زيارة تطوان، هي زيارة قرطبة في القرن الثالث عشر»[٢]

وقد نبغ عدد كبير من أندلسيي تطوان المعاصرين، منهم الأستاذ عبد الخالق الطريس، الرجل الوطني المعروف، والفقيه محمد داود صاحب التاريخ وغيرهما. أما في القرون الماضية فنذكر الفقيه أبا عبد الله الرزيني المتوفى سنة ٩٣٤هـ، قاضي تطوان، والأديب محمد بن عبد الرحمان الكراسي المتوفى سنة ٩٦٤هـ، والفقيه القاضي أحمد بن

---

(١) لورينزو سيلفا ـ سبع مدن في إفريقيا.. حكايات من المغرب في فترة الحماية الإسبانية، ص ٨٥

(٢) العربي المساري» تطوان كما وجدها ألاركون: بيضاء، بيضاء» مجلة كلية الآداب بتطوان السنة ٥ العدد ٥. ١٩٩١

محمد طانية المتوفى سنة ١٠٦٣ هـ، والأديب علي مندوصة من رجال القرن الحادي عشر، وغيرهم.»[١]

هذا ولا يمكننا أن نغفل عن ذكر المؤرخ الأندلسي بن عزوز حكيم الذي دخل التاريخ بدوره بشكل طريف، إذ يعتبر أول مغربي نشر كتاباً باللغة الإسبانية. وحدث ذلك عام ١٩٤٠ في إحدى دور النشر في مدريد، ولم يكن قد تجاوز الـ ١٨ عاماً. أما الكتاب فيحمل عنوان «**رحلة في الأندلس**». وإلى جانب إتقانه خمس لغات على الأقل، من بينها الإسبانية والإيطالية والإنجليزية، خلّف بن عزوز الحكيم وراءه منجزاً هائلاً من البحوث والدراسات والتحقيقات التي تراكمت على مدى سبعين عاماً وبلغت ٣٢٠ كتاباً باللغتين العربية والإسبانية، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من التحقيقات والمقالات المنشورة في الدوريات المتخصصة. كما جاب العالم أجمع محاضراً في التاريخ المغربي والإسباني، ما جعله مرجعاً دولياً في مجال تخصّصه. [٢]

(١) علي المنتصر الكتاني. «**انبعاث الإسلام بالأندلس**» ص ٣٩٥ـ٣٩٣.

(٢) مقال الأندلس تفقد مؤرخها...محمد بن عزوز حكيم» عبد الإله الصالحي. جريدة العربي الجديد. ٣ شتنبر ٢٠١٤.

قبيلة أنجرة

قبيلة أنجرة من أكبر قبائل جبالة بشمال المغرب، تمتد من حدود مدينة طنجة شرقا إلى حدود تطوان وامتدادا حتى مدينة شفشاون، كلها تقريبا تنتمي لتلك القبيلة الأندلسية العملاقة، عرف أهلها بانغلاقهم على أنفسهم حتى وقت قريب وعدم تزوجهم من خارج القبيلة، هذا الأمر جعلهم يحافظون على صفاء عرقهم الأندلسي ويورثونه جيلا بعد

جيل، يمكن للمتجول هناك أن يلاحظ ملامح وألوان عيون غير عربية، قسمات أوروبية بامتياز..

احتضنت قبيلة أنجرة أعدادًا هائلةً من الأندلسيين الذين أُجْبِرُوا على الخروج من مُدنهم وقُراهم وجازوا البحر إلى العدوة المغربية، ولعلّ موقعها المتميز هوالسبب الذي جعل المهاجرين يَحُطُّونَ رحالهم بها ولا يُغادرونها إلى مكان آخر، فهي أقرب منطقة إلى الأندلس، وبلاد جبالة هي أول رُبُوع المغرب التي يطؤها الأندلسي القادم إليه، يقول مُؤَرِّخ جْبالة الأستاذ المريني العياشي ـ رحمه الله ـ في معرض كلامه على العناصر البشرية التي استوطنت بلاد جْبالة: «**غير أنّ العُنصر الجديد المهاجر من الأندلس عند سُقوط غرناطة (١٤٩٢ م) وقبلها وبعدها، وإنْ لم تكن له من المميزات ما تجعله ينفرد بها عن غيره أو يتعصّب لأصله وعاداته لأنها في مجملها كانت متشابهة ومتقاربة مع العادات الجبلية، إلا أنّ تفوّقه في الميدان العلمي والاقتصادي والاجتماعي**

والتِّقني جعله يملأ بعض الفراغ الذي كان حاصلا بالمجتمع الجبليّ، وبالتالي يُدْخِلُ إلى المنطقة أساليب جديدة في الميادين الاقتصادية والثقافية ونحوهما، كما ظهر ذلك واضِحًا في بعض القبائل الجبلية التي استفادت من هذه الهجرة كأنجرة والحوز وجبل حبيب وبني سعيد والشّاون وبعض القبائل الغُمارية، وهذا ما جعل بعض قبائل جْبالة تتأثر بالمَدَنِيَّةِ الأندلسية وحضارتها كما يتجلّى في القبائل التي كانت مُستهدفَة لهذه الهجرة».

وقد عرفتْ قبيلة أنجرة هِجْرتين أندلسيتين هَامّتين: الأُولى هي الهجرة الإشبيلية في أواسط القرن السّابع الهجري، والثانية جاءت بُعيد سُقُوط غرناطة عام ١٤٩٢ م، تلاهما وُرُودُ موجات من الموريسكيين إلى المنطقة.

إنّ طرائق عيش الإشبيليين والغرناطيين مُتَجَلِّيَّةٌ بشكل مُثير في هذه القبيلة، ومما يلفت النّاظر إلى خريطة المنطقة أنّ أغلب أسماء القرى والبلدات الأنجرية يُوجد لها نظائر في الأندلس لاسيما في مملكة غرناطة، من ذلك: الحمّة، والزاوية، والملالح، والخوايم، والمنصورة، والقلعة، والحومة، والخندق، والرّملة، والرميلات، والقصيبة، والشطيبة (والنسبة إليها الشطيبي، وهي تصغير شاطبة)، والدّالية، والزّهَّارَة... بل إن اسم أنجرة ذاته نجد له نظيرا في الأندلس، وهي «**بلدة الأَنْجَرُون، مِنْ بُشَرَّةِ غرناطة**».

الريف

يعتبر رواد المدرسة التاريخية الفرنسية من أوائل من أثاروا موضوع الأندلسيين المهجرين إلى المغرب، ولم يكن ذلك بهدف استجلاء مكانتهم في تاريخ البلاد، وإنما لدورهم فيما عرف بالقرصنة التي مست العصب الاقتصادي للنهضة الأوروبية الحديثة. والشاهد على هذا قول الديبلوماسي دارلاش في كتابه «**المغرب والريف في ١٨٥٦**»؛ «**.. على الضفة الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط، يمكنك أن تلمح جدارا صخريا يصعب اختراقه.. إنه الإقليم المتوحش**

البدائي المعروف بـ»الريف»، الذي يسكنه قوم تخشى معاشرتهم؛ فهم يمتهنون القرصنة».

المعلوم أن كثيرا من الأسر الأندلسية نزحت إلى ثغور المغرب، وبالضبط إلى منطقة الريف، وذلك بعد عمليات الهجرة القسرية أو الطوعية، فاستقرت أسر بضفاف شواطئ الريف، واختارت أخرى الاستقرار بالسهول والبوادي وأعالي الجبال، أو الاستقرار بأماكن خالية ومهجورة. وهناك من الأسر الأندلسية الأخرى التي استقرت مدة مؤقتة بمنطقة الريف، لتهجرها، بعد ذلك، إلى مدن ومناطق أخرى من المغرب، كما فعل حاكم غرناطة أبو عبد الله الذي نزل بمدينة مليلية، ثم انتقل إلى مدينة فاس ليتقرب من السلطان الوطاسي محمد الشيخ. وفي المقابل، ثمة أسر أندلسية استقرت بمناطق أخرى من المغرب، لتنتقل – بعد ذلك– إلى منطقة الريف كأسرة "إيحاجيثان" التي قدمت من مدينة سلا لتستقر بقبيلة بني بوفراح بالحسيمة. وقد اندمجت هذه الأسر الأندلسية ضمن المجتمع الريفي الأمازيغي في بوتقة اجتماعية واحدة، فتمزغت مع مرور الوقت، وشكلت وحدة مجتمعية وقبلية من الصعب تفتيتها، حيث شكل:" تجمع العناصر الأصلية والعناصر الوافدة المحور الأول الأساس للقبائل، خاصة في بني ورياغلوبقيوة التي لم يؤثر العنصر العربي الوافد على المنطقة منذ الفتح الإسلامي على لهجتها، بل على العكس من ذلك، تبربر تجل الأسر العربية التي بقيت مستقرة بعد تخريب مدينة النكور. كل هذه العناصر التي تم تقديمها انصهرت مع مرور الزمن في قبيلة واحدة لها هويتها المتميزة."

«يعتقد Francisco Feliu De La Peña أن منطقة بني جميل هذه هي إحدى أكثر المناطق التي نزلت بها الجاليات الأندلسية منذ العصر الوسيط، والحق أن الساحل البادسي كله الذي يضم قبائل بني جميل وبني بوفراح وبني يطفت وبقوية كان من أشد مناطق الشمال المغربي انفتاحا على العالم الخارجي بما فيه الأندلس التي ارتبطت فيها مدينة مالقة بمدينة بادس ارتباطا شديدا، حتى صارت كل واحدة منهما توأم الأخرى وظهرت بادسالمالقية Velez مقابل الحجر الذي يحتله الإسبان إلى حد الآن قبالة مصب وادي بادس والذي يسمونه «صخرة بادسالغمارية» Peñon de Velez de la Gomera.

كانت عشيرة «**بني أشبون**» قد حلت بتراب هذه القبيلة إثر سقوط أشبونة في نهاية العهد الموحدي، إلا أن أثر هذه الهجرة قليل الآن إذ أن هذه الفرقة قد عمرتها هجرات جديدة قادمة من الريف في القرون الأخيرة ولم يبق مما يوحي بها سوى القليل مع تطاول الزمان.

يؤكد أحد الرسوم القديمة أن مدشر»تدارت» كان أكبر موضع لنزول الأندلسيين الأواخر منذ سقوط مدينة مالقة عام ١٤٨٧ وإلى حدود خروج الأندلسيين النهائي منذ عام ١٦٠٩. إلا أن قسما من هؤلاء النازحين غادر إلى قبيلة بني بوفراح، بينما نزل قسم من أهل مالقة بحجر بادس إلى أن احتله الإسبان عام ١٥٦٤، فغادره بعضهم ونزل بساحل بقوية ثم غادرها صوب «**تدارت**» ولعل منهم حاملي ألقاب «**الخياطي**» و»العزمي» و»شموط»... وسكنت نفس المدشر ومعه مدشر»إبرهونن» عائلة «**برهون**» الأندلسية التي جاءت من غمارة، ومن بادس أيضا جاءت أسرة أندلسية شهيرة هي أسرة «**أعراص**» التي

عرف موضع سكناها ب»إعراصن». والراجح أن أولاد «**البشري**» في مدشر»أعيرم» أندلسيون، وأن إحدى أكبر عائلات القبيلة وهي عائلة «**الكواع**» أيضا أندلسية الأصل وهي منتشرة في مداشر»تازايرت» القريب من البحر من فرقة مسطاسة، ومداشر فرقة «**الثلث الأوسط**» من «**كلث**» إلى «**»اغنزكرت**» ثم «**تازار**». وكان من الطبيعي أن تحتضن فرقة «**مسطاسة**» المطلة على البحر أكبر عدد من الأندلسيين، ومنهم أسرة «**شقرون**» القادمة من مالقة، وعلى الأرجح عائلة «**البغلولي**» في «**مسطاسة**» المركز، وممن يحمل لقبا أعجميا أسرة «**بويا**» أيضا في مسطاسة»[1]

إن موليراس نفسه أشار خلال نهاية القرن التاسع عشر إلى أن كل قبائل الريف تعتبر سكان بني جميل وبني بوفراح من سلالة الأندلسيين، ويرى أن هذا الانتماء هو سبب غلبة الدارجة العربية على القبيلتين. ومن بين ما يسجله أن الهجرة الأندلسية لم تقتصر على المسلمين فقط بل ضمت جاليات يهودية أيضا، وقد ذكر أنه في نهاية القرن التاسع عشر كانت بمدشر»مسطاسة المركز» (الذي يسميه مدينة ويعتبره أكبر من مدينة مستغانم الجزائرية) جالية يهودية مهمة، وأنها لم تكن تعيش في حي معزول أو خاص كما هو الحال في المدن، بل كانت منازل اليهود مختلطة بمنازل المسلمين، إلا أن اليهودي لم يكن له حق التملك نهائيا وكان يعيش ما يشبه «**التبعية**» للمسلمين. ولم يعد لهذا الوجود اليهودي في مسطاسة أي أثر الآن.

---

(١) .بلال الداهية. من تاريخ بادية الشمال: بنو جميل٣

قلعة جارة، ثازوظا

ثازوظا: هضبة متوسطة الحجم، بطول أزيد من كيلومترين تقريبا وعرض بحوالي كيلومتر واحد في أوسع نقطة. تعد مساحتها واسعة نسبيا، إذا ما قورنت بغيرها من الهضاب. منطقة محصنة طبيعيا بأجراف هائلة العلو عمودية الاتجاه.. بحيث لا يبلغ الصاعد قمتها إلا بشق الأنفس، الأمر الذي جعلها منطقة على جانب كبير من الخطورة.

يمكن أن نلاحظ أن هذه البلدة أعيد بناؤها على فترات بعدما تعرضت للتخريب عدة مرات، وأبرزها ما ذكره المؤرخ الأندلسي ابن حيان القرطبي عن تجديد بنائها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٤هـ بطلب من موسى بن أبي العافية، الذي تحصن بها وأسند ظهره إليها، ولقي هذا الطلب كل الترحيب من خليفة قرطبة، فبعث أسطولا من الزاد والمؤونة، إلى جانب فرقة من المهندسين والحفارين والنجارين والحدادين والحصارين المختارين من الحذق في صناعتهم، لإعادة بناء القلعة.[١]

(١) مجلة الذاكرة العدد الثاني، ذ. يوسف السعيدي، قلعة جارة: مخزن الحبوب ومستودع الجبايات ص ١٨٠

وكان التجديد الثاني البارز مرتبطا باحتلال مليلية سنة ١٤٩٧م، المدينة التجارية بالأساس؛ إذ ضمت عدة أسواق كانت تستقبل البضائع الصحراوية بعد مرورها عبر قلعة كرط، كما كان يصل إليها كذلك تجار مراسي الساحل الأندلسي. حتى صارت محط أطماع الإسبان منذ أن تطورت حركة «**الاسترداد**» بحيث تطلع رواد هذه الحركة إلى السيطرة على كل المناطق التي كانت تابعة للدولة الإسلامية بالأندلس، ومن ضمنها مدينة مليلية التي كانت تحت نفوذ الدولة الأموية.

اجتمعت مواصفات عديدة، جعلت من المكان موقعا مثاليا لإقامة قلعة عسكرية؛ تحصين يراد به أن يكون مشرفا على أوسع منطقة، من دون أن تصل إليه أيادي الطامعين. ونظرا لصلابة دفاعاتها الطبيعية.. فإنها أصبحت خلال مرحلة هجوم القشتاليين على السواحل الشمالية المغربية – خاصة على مدينتي مليليةوغساسة- قلعة مهمتها تنظيم الدفاع والمقاومة، وشن حروب خاطفة على محتلي الثغرين، لاسيما حين استقر بها قادة ميدانيون على جانب كبير من الخبرة في محاربة العدو، ممن قدم إلى المنطقة من أحواز غرناطة من أمثال علي العطار الأندلسي أحد قادة بني الأحمر. فصارت القلعة بذلك متمنعة عن وصول الأعداء إليها، حتى شبهها أحد الإسبان بالجبل المهيمن على مليلية وصارت بمثابة ذؤابة لحم الظفر الموجعة.

أسر أندلسية [1]

هناك مجموعة من الأسر الأندلسية التي استقرت بالريف الأوسط، وخاصة في مدينة باديس (الحسيمة)، ومنطقة بني ورياغل، ومايحيطهما من مناطق وقبائل. وأغلب الأسر الأندلسية التي نزلت بهذه المناطق هي من مدينة مالقة الساحلية. والسبب في ذلك أن مالقة كانت قريبة من شواطئ الريف الأوسط. ومن أهم هذه الأسر الأندلسية النازحة، نذكر منها:

أسرة يحيى المالقي:

استقرت هذه الأسرة الأندلسية النازحة في بداية القرن السادس عشر الميلادي في مدينة باديس، وهي حجرة شاطئية قريبة من مدينة الحسيمة. لكن هذه الأسرة ستنتقل إلى قبيلة بني بوفراح، وذلك بعد سيطرة الإسبان على جزيرة باديس سنة١٥٦٤م.

---

(١) من مقال هجرة الأندلسيين إلى منطقة الريف من المغرب الأقصى، د.جميل حمداوي

أسرة الحسن المالقي:

تعد هذه الأسرة من الأسر الأندلسية المهاجرة التي استقرت في مدينة باديس، وقد أقامت برابطة البحر مدة طويلة. هذا، وقد استوطنت المنطقة أسر مالقية كثيرة؛ بسبب العلاقات المتينة التي كانت تربط باديس ومدينة مالقة.

أسرة إيحاجيثان:

من المعروف أن أسرة إيحاجيثان أو" حجي" من الأسر الأندلسية التي استقرت في البداية بسلا، ثم انتقل بعض أفرادها إلى منطقة الريف، فاستقروا بقبيلة بني بوفراح، واستقرت بفرقة ابيحياثان. و"حسب بعض المصادر أن يحيى حجي استقر بعد مدينة باديس في مدشرإهارونن حوالي سنة١٥٦٤م. وأخوه رحو استقر بإكني، ثم انتقل إلى إزلوكن.أ ما أبناء يحيى، وخاصة ابنه علي بن فارس بن يحيى، فإنه استوطن بصفة نهائية بفرقة ابيحياثن الذي يعتبر الجد الأول للأسر المنحدرة من هذا المدشر، وبعد استقرار العناصر الجديدة في هذا المدشر واندماجها مع الأسر الأصلية، أصبحت تحمل نفس النسب." ويعني هذا أن أسرة إيحاجيثان أسرة عربية أندلسية استقرت بسلا أولا، فالريف الأوسط ثانيا، ثم تمزغت عبر العصور والسنين.

فرقة إندروسان:

يعني اسم:" إندروسان" فرقة " الأندلسيين" الذين هاجروا من الأندلس، فاستقروا في منطقة بني ورياغل، وبالضبط في منطقة أجدير. ويرجح أن تكون هجرتهم سنة ١٣٦هـ. والسبب في هذه الهجرة المبكرة تعود إلى انتشار المجاعة بالأندلس في أثناء هذه الفترة. وفي هذا السياق، يقول عبد الرحمن الطيبي:" وسبب ترجيحنا لهذه السنة هو ماعرفته إمارة النكور من ازدهار اقتصادي." ويعني هذا إن إمارة النكور بالريف الأوسط كانت تعرف رواجا اقتصاديا وعمرانيا كبيرا في القرن الثاني الهجري؛ مما دفع الكثير من الأندلسيين إلى الهجرة حيالها بحثا عن الاستقرار، ودرءا للفقر والجوع والوباء.

أسرة أعراص:

هاجرت هذه الأسرة الأندلس، فاستقرت بمدينة باديس، وخاصة ببني يطوفت، وكان لها نفوذ قوي في المنطقة منذ العهد الوطاسي. وبعد ذلك، هاجرت أسرة إعراصن أو أولاد أعراص منطقة بني يطوفت، فاستقرت ببني بويفروربأزغنغان، وكان ذلك في العهد الوطاسي. وسيقوم إعراصن بدور سياسي هام:" مع الوطاسيينبقلعية في آخر أيامهم، ثم مع السعديين بقدومهم على أعراص، استوطنوا موضع أفرا، واحتلوا منخفضا صغير المساحة منحصرا بين تل العمال وجبل العافية أو أفرا، مستأثرين بأهم بقع وادي الخميس بحكم موقعهم السياسي بقلعية."

ويعني هذا أن أسرة أعراص من الأسر الأندلسية المهاجرة إلى الريف الأوسط، فالريف الشرقي، وكانت لها مكانة اجتماعية كبيرة بين الناس، وحظوة سياسية متميزة، وذلك بتقرب هؤلاء من سلاطين الوطاسيين والسعديين

وهناك أسر أخرى وفدت على المنطقة مثل: آيتثاغزة(ثاغزويت) – امرنسا(مرنيسة) – افسي (الفاسيين) – اتسولين(تسول) – اسهلا (زهيلة) – ابعيدذا (آيثبوعياد).. إذن فتجمع العناصر الأصلية والعناصر الوافدة شكلت المحور الأساسي للقبائل، مع العلم أن العنصر الأصلي بقي يشكل قاعدة باللهجة الريفية، فجميع القبائل وخاصة في بني ورياغلوبقيوة التي لم يؤثر العنصر العربي الوافد عن المنطقة منذ العصر الإسلامي على لهجتها، بل على العكس من ذلك تبربرت جل الأسر العربية التي بقيت مستقرة بعد تخريب مدينة نكور وانصهرت مع مرور الزمن في قبيلة واحدة لها هويتها المتميزة.[1]

(١) المفتوحي أحمد بوقرب، منطقة الحسيمة عبر التاريخ مساهمتها في بناء الحضارة المغربية، الجزء الأول هوية المجال وارتباطه بالوطن وعلاقته بالآخر.ص ٤٨

«الملاحظ أن أهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى، فمال أهل البادية إلى ما اعتادوه، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات، ومال أهل الحواضر إلى المدن فاستوطنوها ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم أتباعا لهم متصرفين بين أيديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد»

المقري

غرس بذور الحياة رغم المعاناة

تكيف لا توقف

تفرق أهل الأندلس في بلد اللجوء، وبحث كل عن مكان يشبه بلده الأصل، فمال أهل البادية للبوادي، وأهل الحواضر للمدن، ورغم أنهم حاولوا الاندماج في المجتمع الجديد إلا أنهم كانوا مؤثرين بالدرجة الأولى، أكثر منهم متأثرين، ولا يخفى على أحد أن الأندلسيين عموما غلبت عليهم صفة الاعتزاز بأصلهم وافتخارهم بأنفسهم لدرجة أن عديدا منهم لم يتأقلموا بسهولة مع السكان الأصليين للمناطق التي نزلوا بها إلا بعد فترة من الزمن.. وحتى وقت قريب ظل متداولا بين العامة مصطلح «**مسلموالرباط**» دلالة على الجالية الأندلسية في المدينة التي كان ينظر إليها بالريبة نظرا لاختلاف ملامحهم وعاداتهم وحتى لهجتهم..

الموروث الشعبي

اليوم وبعد مرور عدة قرون من استقرارهم وذوبانهم في المجتمع الجديد ما يزال كل شيء يفوح عبقا بتراثهم ورقيهم الذي وفدوا به، ففي الجانب الاجتماعي مثلا، انتشرت مجموعة من العادات وغدت متأصلة كإحدى عادات المجتمع المغربي مثل عادة اللباس الأبيض في المآتم، كما حمل الأندلسيون معهم إلى المغرب صورة الكف، وهي من بعض معتقدات المسيحية التي رسخت في أذهان الموريسكين باعتبار أن الكف هي كف مريم البتول وهي في معتقدهم مانعة للأرواح الشريرة وتطرد كل شيطان رجيم. (١)

اللهجة

حافظ الأندلسيون على لغتهم، متميزين بلكنتهم التي تختلف عن لهجة المغاربة. وقد أقر ابن خلدون بهذا إذ ذكر أن لغة أهل الأندلس لغة قائمة بنفسها ومباينة – بعض الشيء– للغة أهل المشرق وللغة أهل المغرب أيضا، وأنها متأثرة بعجمة الجلالقة.(٢)

(١) د. محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ـ١٧، ص ٣٤٨ـ٣٤٩– الطبعة الرابعة٢٠١٤

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٥٥

و يمكننا أن نميز تأثير الأندلسيين في لغة المغاربة بين مرحلتين:

- **الأولى:** وهي التأثيرات التي أحدثتها جالية ما قبل القرن السابع عشر في لغة المغاربة، نجد منها؛ انتشار الأمثال العامية الأندلسية بالمغرب التي ما تزال مستعملة في حواضر المغرب وبواديه، ومن مميزاتها ظاهرة الإمالة في الكلام (إبدال الألف ياءا) وهذا الأمر يلاحظ بكثرة إلى يومنا في بوادي الشمال المغربي، إضافة إلى استعمال النون للمتكلم المفرد بدل همزة المضارعة، أيضا تستعمل النون لجماعة المتكلمين مع التفريق بينهما بزيادة الواو في حالة الجمع وقد ورد هذه الاستعمال كثيرا عند الحجري، يقال على سبيل المثال؛ نْمْشي= أمشي، نْخْرُج= أخرج، نْجْلْسو= نَجْلِسُ. كما تمتاز العامية الأندلسية بزيادة كاف في أول الفعل المضارع، فيقال مثلا في «**يكتب**»: كَيْكْتْبْ.
- **الثانية:** تتعلق بالخصوص بالتأثيرات التي أحدثها الموريسكيون في لغة المغاربة في بداية القرن السابع عشر، وتتميز خصوصا بانتشار اللغة الإسبانية في المغرب، وبالتالي دخول كلمات ومصطلحات تقنية في لغة المغاربة، نتيجة وصول أفواج مهمة من الموريسكيين بعد صدور قرار الطرد، فقد سجل ج.مويتG.Mouette ملاحظة أساسية، إذ ذكر «أن اللغة الإسبانية انتشرت بالمغرب انطلاقا من طرد الموريسكيين، منذ أن حملها معهم هؤلاء إليه، وهي منتشرة اليوم(1683) تماما كاللغة العربية..

إلى اليوم مازالت الكثير من العوائل وخصوصا التي تسكن منطقة جبالة أنجرة تتوارث هذا اللباس جيلا بعد جيل لم يتغير منه شيء تقريبا.

يقول محمد قشتيليو» أما لباس المورسكيين في هذا العصر – يقصد بعد سقوط غرناطة– فكان قد ابتدأ يضمحل في بعض النواحي، فناحية قشتالة أصبح أهلها يتزينون بالزي النصراني كله تقريبا، أما في بعض المقاطعات فقد حافظوا على بعض الأشياء الإسلامية الرئيسية كالسراويل والسلاهيم والشاشية والعمامة، كان الفلاحون يستعملون لباسا مزخرفا ويتحزمون بحزام عريض «**الكرزية**» التي ما زالت مستعملة عند قدماء التطوانيين وفي الرباط وسلا وكذلك حتى عهد قريب، وما زالت الآن تستعمل كشيء رئيسي عند فلاحي وحدادي اراغون وكاطالونيا والأندلس وبلنسية»[1]

وكما ورد في أحد المصادرفقد كان من ملاحظات الوافدين للمغرب، خلال ق١٩م ومطلع القرن العشرين، أن البياض كان هو اللون الرسمي في البلاد في كل المناسبات. وكان التمسك بالأبيض ينتقل بالتوارث، وقد ترسخ منذ الموحدين نقلا عن أمويي الأندلس الذين استعاضوا به عن لبس العباسيين وشعارهم الأسود. وكان المغاربة

(١) محمد قشتيليو. المرسكيون في الأندلس وخارجها» ص٧٢.منشورات مركز دراسات الأندلس وحوارات الحضارة.سلسلة المعرفة الأندلسية

يحبون اللون الأبيض وينظرون إليه جميعا على أنه خير الألوان في الحياة والممات»[١]

و هكذا ظلت بصمة الأندلسيين حاضرة في عادات اللباس المغربي، خاصة في طنجة وتطوان ووزان والشاون والعرائش وفاس والرباط وسلا وغيرها من مدن الشمال والوسط[٢]،فمنها ما احتفظ بشكله واسمه كما جيء به ومنها ما أدخل عليها تعديلات مغربية دون إفراغها من طابعها الأندلسي، نذكر على سبيل المثال:

البلغة: كانت هذه الكلمة تنطق في المغرب والأندلس بضم الباء لأنها تبلغ الإنسان لغايته[٣]، وقد استعمل هذا اللفظ في الأندلس من القرن ١١م للدلالة على حذاء لا هو بالقرق ولا بالنعل[٤].وهي كلمة لاتينية في أصلها الأولQuercus خضعت لعدة تطورات من طرف القشتاليين والمستعربين من بعدهم إلى أن كانت كلمة Al Borga أوالبلغة، وقدانتقلت هذه اللفظة مع المهاجرين الأندلسيين إلى شمال إفريقيا وبها تركزت.

---

(١) محمد بوسلام، اللباس التقليدي في المغرب الجذور والإنتاج والأصناف والتطور، ص ٤٣ـ ٤٤ (بتصرف)

(٢) المصدر السابق ص ٤٠

(٣) محمد الحلوي، معجم الفصحى في العامية المغربية ص ٣٥.

(٤) القرق هو حذاء رقعته السفلى من القنب المفتول، والنعل قطعة جلد تشد إلى القدم بأشرطة مظفورة أو مفتولة تغطي زند قدم الرجل بكيفية عرضية أو أفقية.

يقول فيها ابن عسكر المالقي(ت٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م) هذا البيت الشعري:

لتبليغها المضطر تدعى ببلغة

وإن قستها بالتشبه شبهتها نعلا

يذكر أن هذا الحذاء مشرقي الأصل، تطور تدريجيا ابتداء من القرن الثاني عشر ميلادي في الأندلس إلى أن أخذ شكله شبه النهائي في فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بالمشرق العربي والغرب الإسلامي..

وتنقسم البلغ المتداولة في المغرب إلى صنفين: صنف للذكور وصنف للإناث، ولكل صنف صناعه ومواصفاته. فقد كان «**البلايغية**» متخصصين في صناعة بلغ الرجال، في حين كان «**الشرابلية**» يصنعون شرابيل النساء. وقد يجمع بعض الخرازين بين صناعة الصنفين معا في بعض القرى أو المدن الصغيرة والمتوسطة، لكن الفصل بينهما كان هو السائد.

- **السلهام:** عوضت هذه الكلمة «**برنس**» التي لم تعد مستخدمة في المغرب واستعملت بدلها كلمة «**سلهام**» المأخوذة من كلمة Zulameالقشتالية، ولم تعد الكلمتان تستعملان في إسبانيا في الوقت الحالي في حين احتفظ بها في المغرب.
- **الكُزْزِيَّة:** نوع من الأحزمة تضعه المرأة بقبائل جبالة، وقد استعمل هذا الحزام بالأندلس على الأقل أواخر العصر

الوسيط، إذ يوجد في القواميس الإسبانية بهذا الشكل Karazi-Karziyyat ولاحظ أكثر من مؤرخ استعماله من طرف الموريسكيين، بل ويؤكد قشتيلو على أنها ماتزال تستخدم عند فلاحي وحدادي اراغون وكاطالونيا بإسبانيا.

- **الشاشية:** عبارة عن غطاء للرأس وهي من الألبسة التي أخذها معهم المهاجرون الأندلسيون إلى شمال إفريقيا. ولا تزال تستعمل عند قبائل جبالة خاصة إلى يومنا. ويرى عبد الله السويسي، عبد العزيز بن عبد الله أن الشاشية الحمراء أضيفت إليها الشوشة الزرقاء، وهذه الأخيرة فرضت على الأندلسيين زمن المحنة حيث أجبر الإسبان العرب المتنصرين على تمييزهم بشارة زرقاء يجعلونها على قلانسهم[1].
- **العطور:** ورثت فاس أساليب وتقنيات التعطر وتحضير الطيب عن سليفتها قرطبة، حيث كان استنباط العطر فيها مزدهرا منذ القرن العاشر الميلادي، لاسيما على يد القطار والكيميائي الشهير أبي القاسم الزهراوي (ت 1013م). هذا القطار القرطبي طبقت شهرته الآفاق في أرجاء الأندلس والمغرب، وكانت تضرب بعطوره الأمثال في أقطار المشرق وأوروبا خلال القرون التي أينعت فيها الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس. ولما توفي الزهراوي

(١) د. أحمد الكامون، ذ. هاشم السقلي – التأثير الموريسكي في المغرب ص ١٥٣

خلف للعطارين من بعده مؤلفا من تصنيفه حول تقنيات تحضير العطور يحمل عنوان «**كتاب الأدهان**» لم يقتصر انتشاره على بلدان العالم الإسلامي في المشرق والمغرب بل تعداها إلى البلدان الأوروبية حيث ترجم إلى عديد من لغاتها.[1]

الطبخ

يتميز المطبخ المغربي بدمجه بين المذاقين الحلو والمالح في طبق واحد ويعرف بكونه من بين أكثر المطابخ تنوعا في العالم، وقد أدخل الأندلسيون الكثير معهم إثر هجرتهم للمغرب، وهناك وصفات كثيرة ماتزال إلى يومنا الحالي، نجد منها:

- **البايلة**: الراجح أن أصلها «**البقية**» لأن مكوناتها بقايا قطع السمك والدجاج واللحم مما يتبقى من الأطعمة وتخلط مع الأرز ويضاف لها بهارات عدة.
- **الاسفنج**: يصنع من الدقيق المغلي في الزيت، وهو شبيه بالاسفنج المتولد في قعر البحار من حيث الرخاوة والشكل، ويتخذ من الدقيق الأبيض الذي يعجن بالماء الفاتر عجينا قويا ويسقى بالماء قليلا قليلا حتى يصير خفيفا ويرفع كله في أثناء عجنه عن المعجنة باليدين، وينزل بسرعة حتى يخرج منه الريح ويترك يختمر

(١) محمد بوسلام، اللباس التقليدي في المغرب، الجذور والإنتاج والأصناف والتطور ص ١٦٦

ثم توضع على النار مقلاة من نحاس أو حديد بمقدار معلوم من الزيت، فإذا غلا الزيت أخذ من العجين باليد اليسرى وشددت عليه الكف حتى يخرج بعضه فوق الإبهام والسبابة ويقطع قطعا ويوضع منها في المقلاة، فإن نضجت يتم استخراجها واستعمالها، وتجدر الإشارة إلى أنه لم يطرأ أي تغيير واضح على طريقة تحضير هذا النوع أو حتى في الاسم.

- **المروزية**: هي من المأكولات الأندلسية التي لها علاقة بمدينة مرو "بلاد فارس"، وهي تحضر باللحم الفتي السمين مع الزيت والملح والفلفل والكزبرة اليابسة والكمون والحمص البلول إضافة للوز المقشور وحبات الثوم وقليل من البصل يستعمل مع البرقوق والزبيب والعسل، لذلك فهو طبق معسل غني بالتوابل، ولا يزال هذا النمط من الأطباق معروفا بالمغرب ويحضر خاصة في عيد الأضحى.
- **البسطيلة**: أرجع دوزي أصلها إلى الاسم الإسباني Pastel وهي عبارة عن فطائر محشوة بخليط من الحمام المهروس والبيض بنكهة الليمون والعسل إضافة إلى الزيت واللوز المفروم، ولم يعرف المغاربة هذا النوع من المأكولات إلا بعد اتصالهم بالأندلسيين. فأصبح بعد ذلك يحتل مكانة مهمة ضمن الأطباق المغربية.

- **حلوى كَعْبْ غْزَالْ**: اعتبرت من أنواع الحلويات الرفيعة التي لا تستهلك إلا في المناسبات الخاصة وعند طبقة اجتماعية معينة، ومازال هذا النوع من الحلوى منتشرا في بعض المناطق المغربية خاصة مدن الشمال إذ لا يمكن أن تخلو موائد حفلات الزفاف من هذه الحلوى بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية -مخالفا لما كان في الماضي- يعجن الدقيق مع الماء وماء الزهر والسكر والزبدة كمكونات أساسية ثم تصنع الحشوة التي تحتوي اللوز والقرفة ومكونات أخرى ثم تشكل على شكل هلال وتنقش بمراشم خاصة.

الميراث العلمي

وبانتقالهم انتقل معهم علمهم أيضا، إذ يعد الموروث العلمي الذي أتت به الجالية الأندلسية ذا وزن ثقيل في مختلف المجالات من ميدان العلوم التجريبية إلى الترجمة، وبفضلهم دخلت عدة مصطلحات تقنية إلى اللغة العربية. وذلك ما أحيى الدراسات الطبية والصيدلية بالمغرب وبخاصة في فاس ومراكش، وقد قرب الملوك السعديون الأطباء الأندلسيين، واتخذوا من بينهم طبيب القصر الخاص، وأغدقوا عليهم من الصلات، والمكافآت مما شجعهم على النشاط في علاج المرضى، وصنع الأدوية وتأليف الكتب.[1]

(١) المصدر السابق ص ٣٢٨

الفلاحة

كان دور الجالية الأندلسية بارزا في المجال الفلاحي وتقنية السقي، فاعتنوا بغرس أشجار الزيتون والفواكه كالبرقوق والتين والرمان والعنب والسفرجل وحب الملوك، هذا عدى البرقوق البلنسي والفلفل الأحمر الذي كان يزرع بكثرة بمنطقة ماكو ويجفف ثم يدق بالمهراس ويصدر إلى فاس، وعرف وما يزال بـ»الشاونية» نسبة إلى مدينة شفشاون، «**.. والبرتقزي نسبة إلى البرتغال، كما طوروا وسائل السقي والزرع التي استحدثوها طبقا لما كان سائدا في المناطق التي نزحوا منها**»[1]؛ ففي مراكش مثلا، يذكر الإدريسي أن عبد الله يونس المهندس قام ببناء الخطارات[2] في عهد علي بن يوسف (زمن المرابطين)، إذ بدأت المدينة تكبر وتحتاج للمزيد من الماء، وكل القرائن تبعث على الاعتقاد بأن المهندس المذكور من أصل أندلسي، لاختصاص أهل الأندلس في إقامة القنوات المائية ومما لا شك فيه أنهم كانوا أساتذة للمغاربة. وقبل الخطارات اعتمد المراكشيون على السواقي، التي كانت تأتي بالماء على وجه الأرض من أحواض بعض السدود التحويلية، وعلى العيون والآبار وباستعمال النواعير أو

(١) ذ. محمد القاضي/ذ. أحمد أشرنان- شفشاون تاريخ، حضارة، أصالة -ص ٣٧

(٢) الخطارات هي القنوات الجوفية التي توصل المياه.

«**السواني**» حسب الاصطلاح المغربي. وقد استعانوا بخبرة الأندلسيين في تنظيم شبكة الري[١].

وبهاته الوسائل المختلفة توفر الماء الكافي لحاجيات السكان، ولإقامة بساتين وحدائق بجهات من المدينة، وبحاير ومزارع خارجها وغابات النخيل. حتى غدت كصورة مدينة أندلسية كبيرة مثل إشبيلية أو قرطبة التي كانت تقع وسط بحر من الخضرة.[٢]

إضافة إلى هذا فقد نقل الأندلسيون معهم حتى تربية دودة القز إلى المدن التي استقروا بها، مثل فاس وتطوان وشفشاون وقبائل غمارة وبني عروس، لكن المكان الذي تطورت فيه تربية دود القز هو تطوان التي استقر بها عدد كبير من الموريسكيين، يقول الرهوني» وقد كان الناس في القرون الماضية إلى العشر الأولى من هذا القرن معتنين غاية الاعتناء باستخراج الحرير من الدود، فكان جل الناس يغرس في جناته أو غرسته عددا من أشجار التوت، حتى إذا انتصفت الليالي اشترى أهله أوقية أو أكثر من زريعة الدود، وربوها على القاعدة المقررة حتى تفرخ. ثم يصيرون يربونها على أكل أوراق التوت حتى تنتشر في البيوت انتشارا كبيرا.. ثم تصير تغزل خيوط الحرير على لوزتها، إلى أن تنسد عليها، فتجمع في الأطباق، ويذهب للدور التي عندها آلات استخراج الحرير منها.. وكل دار تجمع من ذلك في كل عام الرطل إلى عشرة أرطال أو أكثر من الحرير وتبيعه أو تبيضه وتصبغه وتجعله مِدَجَّات،

---

(١) محمد زنيبر دراسات في الحضارة الإسلامية وثقافة الغرب الإسلامي ص ٣٢٥ (بتصرف)

(٢) المصدر السابق

ثم (قَناشِل)، جمع (قَنشول) أي طاقات[1] صغار. ويحصل الناس من ذلك أرباحا طائلة منها وتكتسي العائلة..»[2]

ولم يقتصر تأثير القادمين الجدد على سكان المدينة فقط، بل وحتى أولئك الذين اختاروا الإقامة في المداشر كقبيلة بني رزين الغمارية، التي تتسجد فيها عادات وتقاليد أندلسية إلى اليوم؛ فقد استعملوا تقنيات أكثر تقدما في مجال تطوير الفلاحة كتذكير التين، تلقيح الأشجار، وطرق تحلية الكروم، وطرد الطفيليات والدود من أشجار الكمثرى والزيتون، والاعتناء بغرس أنواع الأزهار والورود على أطراف العراصي والبساتين، وكانوا يقومون بتقطيره، وقد اشتهرت بعض الأسر بذلك حتى وقتنا الحالي.. [3]

المعمار والفن

- **المعمار:**

إضافة للجانب الاجتماعي فقد انعكس وجود الأندلسيين بالبلد على المعمار والفن بها حيث تعتبر مدينة شفشاون بنت غرناطة بقصبتها وأحيائها وزرقة بيوتها، وقد كان للأندلسيين الأثر البارز في ازدهار حركة الصناعة والتجارة والعمران والفنون والآداب والموسيقى بالمدينة.حيث وصفها الأديب اللبناني أمين الريحاني عندما زارها

(١) طاقات جمع طاق وهو ما يُجدل مع غيره لصنع غزل أو حبل أو خيط نسج
(٢) أبو العباس أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين ج١ ص ٢٤٦
(٣) ذ. محمد القاضي/ذ. أحمد أشرنان- شفشاون تاريخ، حضارة، أصالة -ص ٣٧

سنة ١٩٣٩ م بقوله «**شفشاون مجموعة ظلال على الأفق المشرق.. الصروح البيضاء المتوجة بتيجان الحصون، الحاملة خارجا وداخلا رسالة الحمراء في الهندسة الغرناطية شكلا ومعنى ـ جملا وتفصيلا ـ في النقش والتلوين، وقل التلحين وقل الغناء. وإن أجمل الألحان لفي هذا الزخرف وهذه الألوان**» [١]

كما يتجلى التأثير الأندلسي في بنيان مدينة مراكش خاصة ما بني فترة المرابطين والموحدين، ويسجل أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي أثناء زيارته لغرناطة سنة ١٧٦٦ « **هي أقرب شبها بفاس في بنيانها، وجيران الأودية بجدارتها، ثم القناطر المضروبة عليها، وما اشتملت من الديار والخصص والزليج والدرابيز من اللوح المستدير بمساحات الطبقة الثانية المشرفة على صحن الدار والبيوت والغرف والسقوف والأبواب، والكل مشاكل لمدينة فاس...** »[٢]

- **الموسيقى:**

منذ أن تحققت الوحدة السياسية بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العهد المرابطي، أصبح للمغرب ورجاله إسهام في تطوير الموسيقى الأندلسية زاد من فعاليته توافد الأندلسيين على الحواضر المغربية في أعقاب تساقط مدن الأندلس، فتبنى المغرب معارفها الموسيقية التي تأتى لها أن تتفاعل مع أساليب الممارسات المحلية،

---

(١) المصدر السابق، ص ٧ ـ ٢٧

(٢) د. محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ ـ ١٧، ص٣٥٦– الطبعة الرابعة٢٠١٤

الأمر الذي أفضى إلى نشوء أسلوب خاص في التأليف والأداء، ظل يطبع الموسيقى الأندلسية والغرناطية حتى اليوم.

وأخيرا..

لم تكن شبه الجزيرة الايبيرية سوى قطعة من أرض جذباء، عمرها المسلمون لثمانية قرون لتصبح جنة في الأرض، وبطردهم دارت عجلة الحضارة بسرعة نحوالخلف لتغرق إسبانيا في ظلمات كانت هي من خطا نحوها حثيثا، فيما حمل معهم المطرودون روح الأندلس ليبثوها في بلادهم الجديدة وينصهروا فيها رغم أن ألقاب العديد منه ماتزال شاهدة على منبت أصاحبها..نعم سقطت الأندلس كدولة إسلامية، استؤصلت بالنار والحديد، لكنها لم تسقط من الذاكرة وما روحها التي تسري بين الدروب في مختلف مجالات الحياة اليومية بين سكان المغرب سوى خير دليل على ذلك، ومازالت تتعالى أصوات الأندلسيين المطالبين من الحكومة الإسبانية الاعتذار من فترة التصفية العرقية التي مورست بحق الموريسكيين مساواة مع ما تم بحق اليهود السيفارديم من اعتذار وتعويض..

«يعود تاريخ أول نموذج للاضطهاد العنصري في العصر الحديث إلى سنة ١٦٠٩م بإسبانيا، مع طرد الموريسكيين. هؤلاء المسلمون الذين أجبروا بالقوة على التنصر بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢»

رودريغو دي زايا Rodrigo de Zayas

نحن.. إسبانيا..
وواجب الذاكرة

ماذا لو استيقظت يوما والضباب يعم عقلك؟ تحملق في السقف.. تجول ببصرك في أنحاء الغرفة.. أين أنا؟ تقوم تخطو نحو المرآة لترى شخصا يعرفك ولا تعرفه.. من هذا؟ مهلا، هذا أنا.. من أنا؟.. لقد انسلت كل ذاكرتك في الدجى.. لا ماضٍ لك.. لا حاضر.. فقط هوة فراغ سحيق في رأسك.. كيف تراه يكون مستقبلك من غير تلك الذاكرة؟

ما الذاكرة؟ قد تسع الكلمة سيلا من المعاني والمرادفات، أختزلها هنا في مصطلح واحد أشمل وهو «**التاريخ**»، كلنا نعلم أن لكل أمة ذاكرة هي تاريخها، سواء كان ناصعا أم ملطخ الأحداث يبقى التاريخ ذكرى محفورة لأخذ العبرة والاستفادة من دروسه..

ذاكرة الأندلس

في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢م سقطت الأندلس، استيقظ أهل غرناطة ليجدوا أنفسهم قد صاروا تحت حكم الملكين الكاثوليكيين

فرناندو وايزابيلا، سلم عبد الله الصغير المدينة بعد توقيعه مع الملكين معاهدة نصت شروطها على تُترك المساجد، ولا تُدخل الديار، ويُطلق الأسرى، وتُؤمّن الأعراض والأموال، لكن شيئا من بنود الاتفاق لم يحقق فقد نقض الحاكمون الجدد المعاهدة ورفع الصليب على برج القصر الأعلى معلنا أن غرناطة صارت تابعة للملكين الكاثوليكيين وأن حكم المسلمين قد انتهى..

بعد تسع سنوات من سقوط غرناطة، وفي١٥٠١م أصدر الملكان فرناندوالثالث وإيزابيلا قرارا يحظر وجود المسلمين في بلاد الأندلس، ويعاقب من يخالف ذلك بالقتل[١]. وبهذا نصبت محاكم التفتيش في كل شبر من المدينة بمباركة رجال الدين وتحت إشراف الكاردينال «**خمنيس**» مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية، والدون «**ديجو ديسا**» المحقق العامل في ديوان التحقيق الذي مثل أعظم السلطات الدينية والقضائية في إسبانيا[٢]، ثم جاء مرسوم الطرد من الملك فيليب الثالث في ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩م كقرار أخير توجت به عملية الإبادة العرقية التي عانى ويلاتها الموريسكيون منذ سقوط غرناطة فهجروا قسريا إلى مناطق مختلفة أهمها شمال إفريقيا، ليجدوا نوعا آخر من المعاناة؛ حيث أنهم كانوا عرضة للابتزاز من طرف أصحاب المراكب القشتاليين، لدرجة أن عددا كبيرا منهم لم يكن يصل إلى وجهته المقصودة بسبب قتلهم أو رميهم في عرض البحر من طرف الربابنة.

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٤/٧.

(٢) المصدر السابق ٣١٤/٤ (بتصرف)

القضية الأندلسية

مضى على هذا خمسة قرون وربع القرن، كل عام نردد المراثي ونتغنى بأمجاد الأندلس وشعلة الحضارة الآفلة، كل عام يحتفل الإسبان بذكرى السقوط على أنها ذكرى استرداد.. ماذا تغير؟ لو نظرنا من منظور سطحي فإنه لا شيء حقا قد تغير، لكن إن تعمقنا أكثر ورأينا القضية الأندلسية بوصفها «**قضية**» أولا، لبدت لنا الأمور من زاوية مختلفة تماما..

في العاشر من يونيو ٢٠١٥م تحديدا، أصبح التعديل القانوني الإسباني، المخول بمنح الجنسية لليهود السيفارديم، الذين طردوا من الأندلس عام ١٤٩٢م، نافذا. وقد أقيم حفل بتلك المناسبة وحضره الملك الإسباني شخصيا واستهل كلمته بقوله «**لقد اشتقنا لكم**». مع العلم أن الطرد كان يشمل المسلمين واليهود على حد سواء، فقد تم الحيف في الاعتذار..

تم الحديث عن القضية الأندلسية من زاوية قانونية في أكثر من ندوة في المغرب، خاصة مع الدكتور نجيب لوباريس الذي ألقى الضوء على هذه الجانب ووضحه بالتفصيل. فما سيلي هو عصارة لما طرح في عدة ملتقيات خلال السنوات التي انسلخت..

إسبانيا.. واجب الذاكرة

مفهوم «**إسبانيا كأمة**» تشكل عبر إلغاء المكون الموريسكي من الذاكرة الإسبانية وبتره، الحديث هنا ليس على الماضي ولكن على المستقبل، فالمعاهدات التي وقعتها المملكة الإسبانية مع مختلف الشرائع السماوية سنة ١٩٢٢م كانت عملا رمزيا لطلب الصفح من

المسلمين، وكذلك إقرارها قانون الذاكرة سنة ٢٠٠٦م فيما يخص جرائم النظام الفرانكوي والحرب الأهلية، لكنها تناست التطهير العرقي الذي كان من طرفها اتجاه المورسكيين، يظل هذا الأمر مسؤولية على الدولة تاريخيا وسياسيا. المعلوم أن واجب الذاكرة هذا، تتحمله الدولة لاستدامة تذكرها للانتهاكات التي عانت منها شرائح من شعبها، غير أنه ما يزال هناك نفي لهذه الذاكرة في المدرسة، حيث أنها تدرس كنموذج من الأجنبة وليس كمكون لإسبانيا. ـ المكون الأندلسي هوإسباني برتغالي ـ وقد تم قطع أشواط للاعتراف باليهود السفارديم ولكن ليس المسلمين، المساواة تدعو إلى إدماج الأندلسيين والموريسكيين كذلك.

الانتماء إلى الوطن الأول، على خلاف التجنيس، «**لايعطى ولا ينتزع**». بل هو حق عضوي دائم، تتوارثه الأجيال المتعاقبة، التي تحيى وتكد على أرض الوطن. سواء راق الأمر لحاكمه أو لم يرق له. ولهذا، فقضية الموريسكيين ليست مسألة دينية أو ثقافية أو عرقية، بل هي بالأساس مسألة انتماء لأرض ووطن هما الأندلس. وعليه، سيبقى تهجير الموريسكيين عن وطنهم وتجريدهم من انتمائهم وهويتهم **جريمة دولة**، لا تتقادم مع مرور الزمن. كما ستبقى ذاكرتهم وحقوقهم أمانة في عنق عقبهم، وعنق المدافعين عن حقوق الإنسان.[١]

(١) د نجيب لوباريس ـ من أوليبارس إلى لوباريس سيرة أسرة مهجرة من الأندلس إلى الرباط ـ ص ٢٥

العناصر المادية

القناعة بأن أجدادنا على حق تلزم علينا رد الاعتبار بالحجة القانونية من أجل الوصول لكتابة وثيقة قانونية للملف الجرمي الذي يعد خرقا للقوانين الدولية بامتياز، وأهم عناصر الملف هي العناصر المادية؛ ففي قضية الموريسكيين نجد أن أهم العناصر هي:

- وثيقة معاهدة التسليم التي نصت بنودها على احترام الشعائر الدينية وعادات المسلمين بوصفهم رعايا ومواطنين ولم تكن الوثيقة محصورة بزمن بل «**إلى الأبد**»
- ما حدث للمسلمين في فترة محاكم التفتيش من قتل وتعذيب خلال الفترة ما بين عامي 1492 و1609
- أكبر مأساة في تاريخ الإنسانية وهي التهجير القسري الذي لاقاه الموريسكيون.
- الطابع التمييزي لآخر تعديل، يعد خرقا للقانون المدني الذي ينص على عدم التمييز على أساس ديني أو عرقي، وقد استند التعديل للفصل 11 من الدستور الإسباني حيث يعطي الحق في الجنسية « **للذين يحافظون على روابط خاصة**» مع المملكة ويبدو جليا أن الموريسكيين أولى بها نظرا لتأصل العادات والتقاليد الأندلسية حتى يومنا، وكذلك الأسماء والأكل واللباس كما كان في إسبانيا

والأندلس تماما عكس اليهود الذي لم يبق من عاداتهم شيء سوى لغة اللادينو التي لم تعد مستعملة بدورها..

التأصيل القانوني

بعد جمع كل العناصر المادية يلزم تكييفها قانونيا وذلك بالرجوع إلى شهادات من نقلوا الوقائع كما هي، فيصف رودريغوديزاياس Rodrigo de Zayasمثلا، السياسة العنصرية بأن هدفها كان هوالبحث عن الصفاء العرقي وعد ما تعرض له المسلمون في إسبانيا أول نموذج للاضطهاد العنصري، فيقول في مقال له: «يعود تاريخ أول نموذج للاضطهاد العنصري في العصر الحديث إلى سنة ١٦٠٩م بإسبانيا، مع طرد الموريسكيين. هؤلاء المسلمون الذين أجبروا بالقوة على التنصر بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ »[١] فالدولة اختزلت حق المواطنة في الانتماء للديانة المسيحية وهذا حسب زاياس يعد جريمة دولة وتطهيرا عرقيا.

انطلاقا من هذا يمكن التوجه نحوالتأصيل القانوني للقضية، فمن المعلوم أن هناك قاعدة تحرم رجعية الأثر القانوني، فطرد الموريسكيين لا يمكن إخضاعه للمنظومة الدولية لحقوق الإنسان ولكن يمكن تناول القضية بمنظور آخر اعتمادا على التعديل الأخير، ألا وهو جزئية التمييز، وكما نعلم فقد ورد في القانون العالمي لحقوق الإنساني وكذا

(١) Rodrigo de Zayas. « L'expultion des moriques d'Espagne. Cas moderne de l'épuration ethnique ». Le monde diplomatique، mars ١٩٩٧. P١٤

قانون الاتحاد الأوروبي، أنه لا أحد يمكنه أن يكون موضوع تمييز عنصري بسبب دينه أو عرقه، فيمكن بهذا استغلال النصين لإظهار الطبيعة العنصرية المحرمة لهذا التعديل.

الخلاصة

بعد هذه الومضة حول الشق القانوني للقضية لا يسعني إلا القول أنه على إسبانيا أن تتصالح مع ماضيها وتقوم بواجب الذاكرة اتجاه الموريسكيين عن طريق الرجوع إلى احترام كل بنود معاهدة التسليم المعروفة أولا، ثم إبطال كل المراسيم التي قضت بطرد الرعايا الأندلسيين من وطنهم، بهذا يجب منع الاحتفالات التي تقام في ذكرى الطرد وتجريم كل الكتابات التي تدعوالى التمييز. على إسبانيا أولا وأخيرا أن تحترم دستورها القائم على أساس لا ديني وتراجع التعديل الأخير..

هل سمعت يوما ببلاد تحتفل بجرائم إبادة عرقية وتهجير مواطنيها؟.. لم تسمع؟! أنا أقول لك: «**هي إسبانيا**»..

المصادر والمراجع

- د. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة الرابعة 1997م
- لسان الدين بن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق د. يوسف علي طويل،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعةالثانية 2014م
- إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية- مكتبة المعارف بيروت 1990م
- أبو جعفر أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، المكتبة العصرية- الطبعة الأولى 2005م
- محمد بن جرير الطبري أبو جعفر،تاريخ الأمم والملوك، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية

- أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الطبعة الخامسة 2008م
- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحاده - سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 2001م
- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، الطبعة الأولى 2004م
- أبوالقاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق: د. صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية للطباعة والنشر- صيدا، بيروت، الطبعة الأولى 2003م
- أبي القاسم محمد ابن سماك العاملي، تحقيق د. عبد القادر بوباية. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دارالكتب العلمية– بيروت 2010م
- أحمد بن خالد الناصري - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء
- د. منتصر علي الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية 2005م

- د. عبدالرحمنعلي حجي: التاريخالأندلسيمنالفتحالإسلام يحتسقوطغرناطة،دارالقلمدمشق،الطبعةالسابعة 2010م
- د. عبدالرحمنعليحجي،شعرالعلماءفيالأندلس،دارالقلم-دمشق،الطبعةالأولى 2015م
- منيرالقادريبودشيش،الفكرالأصوليفيالأندلسفيالقرنالثامنالهجريوإسهاماتابنجزيّفيه،الرابطةالمحمديةللعلماء. ط. 2011م
- عيسالحسن،الأندلسفيظلالإسلامتكاملالبناءالحضاري،الأهليةللنشر،الطبعةالأولى 2010م
- محمدحقي. البربرفيالأندلسدراسةلتاريخمجموعةاثنيةمنالفتحإلىسقوطالخلافةالأموية.شركة المدارس للنشروالتوزيع -الدارالبيضاء،الطبعةالأولى 2001م
- د.طارقسويدان - الأندلسالتاريخالمصور،شركةالإبداعالفكريللنشروالتوزيعالكويت،الطبعةالثالثة 2009م
- د. إدريسالسفياني - الوثائقوالأحكامبالمغربوالأندلسفيالقرنينالرابعوالخامسالهجريين. منشوراتمركزالبحوثوالدراساتالفيالفقهالمالكي،التابعللرابطةالمحمديةللعلماء،ضمنسلسلة: سلسةأبحاثودراساتفيالمذهبالمالكي (1) الطبعةالأولى 2012م.
- عامرالنجار- فيتاريخالطبفيالدولةالإسلامية،دارالمعارفال طبعةالثالثة 1994م

- د. عبدالحقالمريني.مناراتمنتاريخالمغرب،منشوراتالزمن (سلسلةشرفاترقم 69)
- د. رفاهتقيالدينعارف- غرناطةفيعصربنيالأحمرالحياة العلميةوالثقافية- صفحاتللدراساتوالنشر،الطبعةالأولى 2016م
- دخليلخلفالجبوري- الموانئالأندلسيةفيعصريالإمارةوالخل افةالخدماتوالتسهيلاتالتجارية- صفحاتللدراساتوالنشر، الطبعة الأولى2016م
- دمشتاثكاظمالمياح. مراكشخلالعصرالموحديندراسةف يالحياةالاجتماعيةوالاقتصادية،صفحاتللدراساتوالنشر 2014 م
- د.راغبالسرجاني،قصةالأندلسمنالفتحإلىالسقوط (الجزءال أولوالثاني)،مؤسسةاقرأللنشروالتوزيعوالترجمة،الطبعةالأو لى 2011م
- د. راغبالسرجاني،ماذاقدمالمسلمونللعالم؟شركةأقلاملنشر الطبعةالأولى 2013م
- د. راغبالسرجاني: وشهدشاهدمنأهلها، دار نهضة مصر للنشر، الطبعة الثالثة 2011م
- عبداللهالدفاع،لمحاتمنتأريخالحضارةالعربيةالإسلامية،دا رالرفاعي،الرياض

- سيمونا لحايك، تعربتوتغربتأ ونقلا لحضارة العربية، لبنان 1987م
- د. حسنالوراكلي: ياقوتةالأندلس،دراساتفيالتراثالأندلسي، دارالغربالإسلامي 1994م
- د. خالدبنمحمدمباركالقاسمي: تاريخالحضارةالإسلاميةفي الأندلس،الدارالثقافيةللنشرالطبعةالأولى 2008م
- أ.د.أحمدفؤادباشا - سلسلةالموسوعاتالإسلاميةالمتخصصة 4 موسوعةالحضارةالإسلامية،وزارةالأوقاف- المجلسالأعلىللشؤونالإسلامية،جمهوريةمصرالعربية 2005م
- أبوالعباسأحمدبنيحيىبنعبدالواحدبنعليالونشريسي.المعيارالمعربوالجامعالمغربعنفتاوىإفريقيةوالأندلسوالمغرب، إشرافمحمدحجي، منشورات وزارةالأوقافوالشؤونالإسلامية للمملكةالمغربية - ودارالغربالإسلامي 1981م
- تاريخ العلوم في الإسلام، بحوث الندوة العلمية الدولية الأولى التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء بأكاديمية المملكة المغربية بالرباط. دار الأمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2014م
- دعبدالسلامالجعماطي- النقلوالمواصلاتبالأندلسخلالعصريالخلافةوالطوائفدارابنحزمالطبعة الأولى
- د. خليلإبراهيمالسامرائي،د. عبدالواحدذنّونطه،د. نا طقصالحمطلوب، تاريخالعربوحضارتهمفيالأندلس،

دارالكتابالجديدالمتحدة - بيروت،لبنان الطبعة الأولى 2000 م

- دعبدالواحدذنونطه- الإسلامفيالمغربوالأندلسكيفانتشرول ماذا؟ - دارالمدارالإسلامي، 2009م
- محمدمحمدأمان: الكتبالإسلامية،مكتبةفهدالوطنية،الري اض 1990م
- د. عبدالهاديحميتو،معجممؤلفاتالحافظأبيعمروالداني (444هـ) إمامالقراءبالأندلسوالمغربوبيانالموجودمنهاوال مفقود- الجمعيةالمغربيةلأساتذةالتربيةالاسلامية،فرعآسف يالطبعةالأولى 2000م
- أ.دعرفانيلماز،مكتشفالكنزالمفقودفؤادسزكينوجولةوثائي قيةفياختراعاتالمسلمين،دارالنيلللطباعةوالنشر،الطبعةالأو لى 2015م
- د. أحمدالكامون،ذهاشمالسقلي- التأثيرالموريسكيفي المغرب،مركزالدراساتوالبحوثالإنسانيةوالاجتماعية – وجدةالطبعةالأولى 2010م
- محمدقشتيليو: الموريسكيونفيالأندلسوخارجها،منشوراتم ركزدراساتالأندلسوحوارالحضارات،العددالأولمنسلسلةالم عرفةالأندلسية
- د. عبدالحليمعويس – تجربةالأندلسأسبابالسقوط(دروسو عبر) دارالكلمةللنشروالتوزيعطبعة 2006م

- محمدبنموسالشريف – استجاباتإسلاميةلصرخاتأندلسية، دارالأندلسالجديدة 2008م
- محمدزنيبر،دراساتفيالحضارةالإسلاميةوثقافةالغربالإسلامي،منشوراتكليةالآدابوالعلومالإنسانيةبالرباط، 2010م
- عاد لسعيد بشتاوي ، كتابا لأمة ا لأ ند لسية ا لشهيد ة - المؤسسةالعربية، الطبعةالأولى 2000م
- د. محمدنجيبلوباريس،منأوليباريسإللوباريسسيرةأسرةمهجرةمنالأندلسإلىالرباط،مطبعةالأمنية،الرباط،الطبعةالأولى 2016م
- ا لحسينبو ز نيب ، ا لمو ر سكيو نو قصبة ا لر با ط . دارأبيرقراقللطباعةوالنشر 2006م
- د. محمدرزوق- الأندلسيونوهجراتهمإلىالمغربخلالالقرن ين 17-16،افريقياالشرقالطبعة الرابعة 2014م
- أ.د. عبداللهحمادي- الموريسكيونومحاكمالتفتيشفيال أندلس (1492- 1616)المؤسسةالوطنيةللكتاب، الجزائر، 1989م
- ذ. محمدالقاضي/ذ. أحمدأشرنان - شفشاونتاريخ،حضارة،أصالة 2011م
- محمدأخريف- محمدالعربيالعسري.القصرالكبير: صورتحكي.. معالمووجوهوأحداث،منشوراتجمعيةالبحثا لتاريخيوالاجتماعي بالقصر الكبير 2015م

- د. رشيد العفاقي، الأندلسيون في القصر الكبير، دار سليكي أخوين للنشر 2016م
- محمد بن عبد الرحمان بن خليفة، القصر الكبير أعلام أدبية علمية تاريخية. 1994م
- محمد بن أحمد بن محمد ميارة، نصيحة المغتر بوكفاية المضطر ب، تحقيق ذ. محمد الغرايبوذ. مصطفى بنعلة، مطابع الرباط نت، 2013م
- محمد داود. عائلات تطوان. منشورات جمعية تطاون أسمير، الطبعة الأولى 2016م
- محمد داود. مختصر تاريخ تطوان. طبعة 1954م
- محمد داود. تاريخ تطوان، جمعية تطاون أسمير الطبعة: الأولى 2009م
- أبو العباس أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، من شورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث، 6، الطبعة الأولى 2001م
- امحمد بن عبود، ج. ل. ميج، نادية الرزيني، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، منشورات جمعية تطاون أسمير، 2002م
- عبد العزيز بن عبد الله. تطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعها. منشورات جمعية تطاون أسمير 2006م

- عبدالكبيربنهاشمالكتاني. تحقيقد.عليبنمنتصرالكتاني - زهرالآسفيبيوتاتأهلفاس، مطبعةالنجاحالجديدة 2002م
- المفتوحيأحمدبوقرب،منطقةالحسيمةعبرالتاريخمساهمته افيبناءالحضارةالمغربية،الجزءالأولهويةالمجالوارتباطهبال وطنوعلاقتهبالآخرمطبعةالخليجالعربي – تطوان 2013م
- محمدبوسلام،اللباسالتقليديفيالمغربالجذوروالإنتاجوالأ صنافوالتطور. دارأبيالرقراق، 2014م
- د. أحمدالكامون،ذ. هاشمالسقلي – التأثيرالموريسكيفيالمغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة 2010م

المصادر المترجمة والأجنبية

- السير توماس أرنولد.الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي. مكتبة النهضة.
- برنهاردوإلنويشو - إسبانياالعربية (الأندلس) إضاءاتعلىتاريخهاوفنونها–،ترجمةصفاءكنج، ستانليلينبول. قصةالعربفيإسبانيا،مؤسسةهنداويللتعليموالثقافة
- جوستافلوبون،حضارةالعرب،حضارةالعرب،ترجمةعادلز عيتر،الدارالأهلية
- ماركغراهام. كيفصنعالإسلامالعالمالحديث؟؟ترجمةأ. د. عدنانخالدعبدالله،هيئةأبوظبيللثقافةوالتراث،كلمة 2010
- جواهرلالنهرو: لمحاتمنتاريخالعالم، زيغريدهونكهشمسال عربتسطععلىالغربدارصادربيروتالطبعةالثامنة.
- ولديورانت: قصةالحضارة،المنظمةالعربيةللتربيةوالثقافةوا لعلوم - دارالجيللطبعوالنشروالتوزيع

- مايكلهاميلتونمورجان: تاريخضائع،ترجمة: أميرةنبيهبدوي،دارنهضةمصرللنشروالتوزيع
- لورينزوسيلفا- سبعمدنفيإفريقيا.. حكاياتمنالمغربفيفترةالحمايةالإسبانية
- España en suhistoria، Americo Castro، CRITICA 2013
- Rodrigo de Zayas. « **L'expultion des moriques d'Espagne. Cas moderne de l'épuration ethnique** ».Le monde diplomatique، mars 1997.
- L'Espagne Musulmane au temps des NASRIDES(1232-1492)، Rachel ARIÉ، Edition E. de Boccard1973
- Histoire des Musulmans d'Espagne: Jusqu'a La Conquete de L'Andalousie Par Les Almoravides (711-1110). Vol II.DozyReinhart Pieter
- Nevill.Barbour: A Survey of NorthAfrica (The Maghrib) Oxford UniversityPress London 1959

- سيديو: تاريخالعربالعام، Louis Pierre، Eugène SèdillotAmèlie: Histoire des Arabes
- آنخلجنثالثبالنثيا. تاريخالفكرالأندلسيَ- Angel Gonzalez Palencia: Historia de la Literatura Arabigo-Espagnola. ترجمةحسينمؤنس.. سلسلةميراثالترجمةالعدد1770.

المقالات

- رشيد العفاقيمقالات»تراجم التابعين الذين دخلوا الأندلس»، من موقع مركز عقبة بن نافع للدراسات والأبحاث حول الصحابة والتابعين www.oqba.ma
- محمد تركي محمد شطناوي. مكتبة الخليفة الأموي الحكم المستنصر في الاندلس. المجلة الأردنية للتاريخ والآثار.المجلد 10.العددان 2016-3+2
- د. جمال عبد الرحمان على صفحته: الوجود الإسلامى العربي في أمريكا اللاتينية:-2 المصادر العربية والقرائن يوم 11 غشت -2018 د.صالح العطوان الحيالي.الخشخاش بن سعيد واكتشاف أمريكا. العربي اليوم.2017-11-14
- الشاهد البوشيخي.فقه واقع الأمة: دراسة في المفهوم والشروط والعوائق.جريدة المحجة 03مارس، 2008. العدد 293

- من مقال للدكتور بركات محمد مراد «المجريطي بين الكيمياء وعلم الفلك» بمجلة حراء العدد 41
- مقال بعنوان «**الدور الاقتصادي للأندلس**» من موقع YABEYROUTH
- جمهورية أبي رقراق.مجلة دعوة الحق عدد 75
- صلة الجالية الأندلسية في المغرب 2- دعوة الحق. العدد 206
- د. حمزة بن علي الكتاني أندلسيو مدينة فاس – موقع رابطة العلماء السوريين
- العربي المساري» تطوان كما وجدها ألاركون: بيضاء، بيضاء» مجلة كلية الآداب بتطوان السنة 5 العدد 5. 1991
- مقال الأندلس تفقد مؤرخها...محمد بن عزوز حكيم» عبد الإله الصالحي. جريدة العربي الجديد. 3 شتنبر 2014.
- بلال الداهية. من تاريخ بادية الشمال: بنو جميل3
- مجلة الذاكرة العدد الثاني، ذ. يوسف السعيدي، قلعة جارة: مخزن الحبوب ومستودع الجبايات
- مقال «**هجرة الأندلسيين إلى منطقة الريف من المغرب الأقصى**»، د.جميل حمداوي

- د.سلوىالزاهري - البيوتاتاالأندلسية - المورسكيةبتطوان:ال جذوروالامتدادات، موقع tetouan2406-11-2013
- د. عبدالناصركعدان- بحثالأدويةالمستخدمةلعلاجآلاما لمفاصلفيكتابالجامعلابنالبيطار،رابطالمقال: https:// www.ishim.net/ankaadan6/IbnBitar

إهداء	٣
شكر	٥
مقدمة	٧
تقديم	١١
قبل الإبحار	١٣
الخط الزمني للأندلس	١٥
شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح	٢١
﴿لا إكراه في الدين﴾	٢٧
بذل الندى وكف الأذى والصبر على طول المدى	٣١
العدل	٣٣
نهضة الأندلس	٣٥
الإشعاع الحضاري	٥٣
الإشعاع العلمي	٥٩
الإشعاع الثقافي والفني	٧٣
الإشعاع الاقتصادي	٨١

أفول حضارة...	٩٣
الهولوكوست القشتالي	٩٥
محاكم التفتيش:جرائم ضد الإنسانية	١٠١
عوامل انكسار الأندلس	١٠٩
روح الأندلس	١١٩
من علمائها الأندلسيين	١٣٧
مراكش	١٤١
فاس	١٤٧
مكناس	١٥٣
تطوان	١٥٥
قبيلة أنجرة	١٦٣
الريف	١٦٧
قلعة جارة، ثازوظا	١٧١
أسر أندلسية	١٧٣
غرس بذور الحياة رغم المعاناة	١٧٩
نحن.. إسبانيا.. وواجب الذاكرة	١٩٥
المصادر والمراجع	٢٠٣
المصادرالمترجمة والأجنبية	٢١٣
المقالات	٢١٧

كتوبيا
للنشر والتوزيع